
ظلاً
رواية قصيرة
K.D

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2026 ©

39

ظلاً

رواية قصيرة

حامد الظاهري

أول النهار

حين يعيش المرء تفاصيل في لحظة ...



بعد أن حصلتُ هذا العام على جائزة التصميم الدولية التي تنظمها الجمعية العالمية لمهندسي التصميم الداخلي , كُنت أمام قرار حاسم إما أن تكون تلك الجائزة هي قمة النجاح ونهاية مسيرتي المهنية و إما أن تكون بداية مرحلة أخرى والبحث عن تحديات جديدة.

الاكتفاء بتلك الجائزة سوف يضع أمامي فرصاً لا حصر لها في أعمال قد أصل إلى سن التقاعد - وإن لم يكن في مهنتي تقاعد - دون أن أتمكن من الانتهاء منها , أصبح أسمي المهندسة (مهرة سلطان) معروفاً و مشهوراً لدى العاملين والمهتمين بالمجال وفي الإصدارات المتخصصة بالتصميم والفنون المعمارية.

لكن تلك السمعة والشهرة التي بلغت الآفاق داخل وخارج الوطن لا ترضي طموحي , سأتجمد في نفس القوالب التي صنعت مني أيقونة مميزة في مجالي هل أقبل بهذا الجمود الذي سأحصد منه الملايين أم أبحث عن محيط أزرق أبحر فيه وأكتشف فيه إمكانيات جديدة وقدرات أكثر احترافية ؟

في طريق الطموح الخطوة الأسهل هي تجاوز الفشل إلى النجاح والخطوة الأدق هي المحافظة على النجاح والخطوة الأصعب هي تجاوز النجاح إلى نجاح أكبر منه ورفع سقف الإنجاز إلى سقف أعلى منه ومستوى التحدي إلى مستوى أرفع من الذي سبقه , قررت خوض التحدي , تحدي الذات للوصول إلى نجاح أكبر ولكن لم أقرر بعد الخطوة التالية في طريق الطموح .

ليس من اليسير أن يجد الإنسان علامات الطريق الذي يريد المضي فيه ولو فكر ألف مرة وخطط ألف مرة وسأل عن تلك المعالم ألف شخص وقرأ عن ألف تجربة , يبقى هناك في الركن القصي من الصدر شعور الرهبة والتأهب والترقب من الخطوة القادمة مهما كانت صغيرة, فكيف إذا كانت كبيرة ؟

قبل أن أحرك قدمي نحو أي اتجاه وقفت أمام عشرات الخيارات التي يجب أن أحسم رأيي حيالها قبل اتخاذ القرار , حين يتعلق الأمر بالآخرين نلقي جزافاً آرائنا واختياراتنا لهم بناءً على خبراتنا وحدسنا , لكن حين يتعلق الأمر بنا في أمر مصيري لا نجد لتلك الخبرات أو ذلك الحدس أي حضور.

في عالم المثاليات نقبل بما نحصل عليه ونحاول التميز فيه حسب ما يمكننا الوصول إليه , أما في الواقع نطمع أن نحصل على كل شيء وفوق ذلك أفضل شيء , بين الواقع والمثاليات اعتزلت العالم حتى أستطيع أن أقرر .

كان المبلغ الذي حصلت عليه مع الجائزة كافياً لأن أختار إحدى الدول الهادئة والتي بها مساحات شاسعة من الأراضي الخضراء والغابات الكثيفة والسكان الودودين , حجزت الكوخ بالقرب من إحدى قرى الأرياف وخلال بضعة أسابيع سأكون هناك برفقة اثنان وفي انتظار الثالث .

أول من سيرافقني أفكاري , تلك التي أود التخلص من بعضها والتأمل في بعضها الآخر واكتشاف المجهول منها , والفكرة الأهم التي سوف تساعدني إلى جوار حدسي على اتخاذ القرار وهي الضيفة الثالثة التي أتوقع وصولها .

أما ثاني المرافقين هو صديقي (عيطموس) من هو؟ كيف نشأت علاقتنا وكيف بدأت؟ كيف يتواجد معي دوماً في مجتمعي المحافظ ؟ كل تلك الأسئلة سيأتي جوابها في الصفحات القادمة , قد لا يكون مدهشاً إن أخبرتكم أنه هو من أقترح علي أن أبدأ كتابة هذه الرواية بدلا من أن أرسم وحتى يتجلى ذهني لاتخاذ القرار.

أبلغتني بالأمس إدارة المبيعات بالمؤسسة أن هناك مشروع جديد , تقدم به مالكه والذي يدعى (عدي) لتنفيذه من قبل مؤسستي , وطلب تحديداً أن أقوم بالعمل بنفسي , أخبرتهم أن يبلغوه أنني لن أتواجد إلا بعد ثلاثة أسابيع وبإمكان القسم الفني أن يقدم تصوراً له عن المشروع إلا أنه رفض .

ذهبت صباح اليوم التالي إلى المؤسسة لألتقي بالعميل العنيد (عدي) الذي أصر على مقابلتي وإقناعي باستلام المشروع , صحيح لدي بعض الغرور ولكنه غرور الأنثى الطبيعي أما فيما يتعلق بالعمل فلا مكان للغرور.

كل ما في الأمر أنني أمام أمرين , أولهما هو نموذج العمل أو ما يطلق عليه " بزنس مودل" والذي تأسست عليه الشركة مستقبلاً المؤسسة حالياً والأمر الآخر هو القرار الذي يجب أن أتخذه في غضون الأسابيع القادمة .

لو كُنت أعرف ما هو القرار لاتخذته وكتبته الآن وأنتهيت من مشقة التفكير والقياس بين الأمور والنظر في المعطيات , سأكتب عن تلك العوامل بعد الحديث عن العميل العنيد الذي بسبب لقاءه حصلت ترتيبات جديدة.

في الحادية عشرة من ضحى ذلك اليوم , دخل إلى مكتبي العميل العنيد يحمل بيده ملف ورقي ضخم , يوحي مظهره أنه من متوسطي الدخل , ذلك سبب كافي لأن أرفض العمل معه فهو ليس من الشرائح المستهدفة في المؤسسة.

وضع الملف على الطاولة , هذا سبب آخر يدفعني لرفض مشروعه, لا نستقبل الأوراق نطلب من العميل أو من يمثله أن يبعثها لنا عبر الإيميل في صيغة ملف إلكتروني , كل ما حدث كان خلال أقل من دقيقة , صدمني بقوله :

- هل تودين أن نحدد موعداً آخر ؟

- لمَ ؟!

- أراك منهمكة في عمل آخر.

في تلك اللحظات لم أكن منشغلة سوى بالهاتف المحمول , أرتب مع إحدى الصديقات حول غداء اليوم , وضعت الهاتف جانباً , لا أريد الظهور أمام عملائي بمظهر غير احترافي , حتى لو لم يكن بيننا عمل أو حتى صفقة ..

- تفضل.

- هذا المبنى.

- ماذا به ؟

- أريد تحويله إلى مبنى تجاري.

- ليست هذه الأعمال من اختصاصنا.

- إذن لتكن من اختصاصكم.

- عفواً !

أخرج العميل العنيد دفتر الشيكات وضعه أمامي وقال :

- أكتبي الرقم الذي تودين.

- ليس الآن , بعد دراسة المشروع نقدم العرض.

- إذن اتفقنا.

خرج العميل العنيد الذي لا أعرف ماذا يريد دون سلام أو حتى مجاملة وداع تركني في دوامة من الأفكار , أمامي ملف ضخم لمبنى سكني متهالك عمره يتجاوز المائة عام , لا يريد ترميمه فحسب بل تحويله إلى تجاري !

ماذا أصنع في هذه الكارثة التي نزلت على رأسي فجأة ؟ أغلق في وجهي كل أبواب الرفض , ليس لدي الآن إلا أن أقدم له عرض سعر خيالي , ماذا لو قبل بالعرض ؟ سأضع نفسي في مأزق التنفيذ , مشروعه ليس من ضمن تخصص المشاريع التي نعمل بها , هل يمكن خوض هذه التجربة والمجازفة بسمعتي وسمعة المؤسسة ؟

دون تردد طلبت مدير المشاريع ومدير القسم الفني ومدير التسويق , حضرت أولاً (ليان) مديرة التسويق في المؤسسة , بدأت العمل معي قبل عشرة سنوات وكان لها الدور الأكبر في حصول المؤسسة على مكانة مميزة في السوق.

ثم حضر (ميشيل) مدير المشاريع في المؤسسة والذي يعمل معنا منذ خمس سنوات بعد أن استقدمته بناءً على طلب زوجته (رويدا) والتي تعمل معنا في قسم التطوير منذ قرابة تسع سنوات.

آخر الحضور وأول العاملين دائماً باجتهاد ونشاط والتي ساهمت معي في قيام المؤسسة قبل ثلاثة عشرة عاماً هي (شادن) مديرة القسم الفني بالمؤسسة.

(شادن) ليست مجرد موظفة مميزة , بل هي رئة المؤسسة - حرفياً - لولا الله سبحانه وتعالى ثم نصائحها وخوفها ومشاكستها ربما سقطت المؤسسة منذ زمن بعيد أو كانت مجرد منظمة هندسية هزيلة القدرات معدومة الإنتاجية.

عرضت للثلاثة مشروع المبنى السكني الذي يريد تحويله العميل إلى مبنى تجاري دون أي تفاصيل أخرى , كما تعودت من (ميشيل) الموافقة على استلام المشروع , وكما تعودت من (ليان) طلب مهلة لدراسة المشروع , لكن كان أهم رأي أنتظره هو رأي (شادن) التي علقت أنها تنتظر الرأي التسويقي حتى تبدي رأيها كما تعودت منها ذلك .

اتفقنا الأربعة أن تبدأ (ليان) الدراسة ثم تقدم (شادن) الرأي الفني وبعد أن يوافق العميل على عرض السعر ويتم توقيع العقد يستلم (ميشيل) المشروع لتنفيذه حسب الجدول الزمني المتفق عليه في العقد.

بعد عشرة أيام من ذلك الاجتماع , طلبت (ليان) عشرة أيام أخرى لإتمام الدراسة التسويقية للمشروع , أخبرتها أن رحلتي بعد أسبوع وأود أن أطلع على نتائج الدراسة قبل السفر لتكمل (شادن) بقية الأعمال حتى عودتي.

الإدارة مثل طبقات الجو كلما عَلا المرء في المراتب زاد الضغط , وهذا مايحدث مع (ليان) ومع فريقها في قسم التسويق , ميزة تعاب على (ليان) هي أنها تهتم بأصغر وأدق التفاصيل وتتابعها وتنجز بعض منها لتسريع العمل وذلك الجهد الإضافي قد يكون سبب شكواها الدائمة من الصداع المستمر.

على النقيض منها (شادن) التي كانت ولا تزال تراقب التفاصيل الصغيرة من بعيد ولا تنجز إلا المهام الموكلة بها , قامت مشكورة على كتابة الوصف الوظيفي لكل العاملين بالمؤسسة بداية من عاملة الصحة العامة وصولاً إلى رئيس المؤسسة , ساهم جهدها في بناء نموذج عمل مميز للمؤسسة.

وصلت دراسة قسم التسويق في موعدها المحدد , قبل موعد الرحلة بأربع وعشرين ساعة , اعتدت من قسم التسويق أن يقدم ثلاث تقارير بناءً على إستراتيجية المؤسسة , التقرير الأبيض والتقرير الأسود والتقرير الرمادي , هكذا نطلق على التقرير في أحسن العوامل والتقرير في أسوأ العوامل والتقرير المبني على الواقع وموقع المؤسسة في السوق .

هاتفت (شادن) ليلة الرحلة سألتها :

- ما رأيك في المشروع ؟

- الرأي المؤلم أم الرأي الممتع ؟

- كلاهما.

- الرأي الممتع أن نوافق ونضع الأهداف حسب التقرير الأبيض.

- والمؤلم ؟

- نرفض المشروع , حسب التقرير الأسود.

- ورأي (شادن) ؟

- (شادن) مديرة القسم تدعم قرارك.

- و (شادن) صديقتي ؟

- لا.

- السبب ؟

- نسبة المخاطرة عالية جداً.

- من منظور التقرير الأسود ؟

- حتى من منظور التقرير الأبيض والرمادي.

- لم أقرأ فيهما هذه الخطورة !

- المشروع خارج نطاق خبرة المؤسسة.

- تجربة تستحق المخاطرة.

- هل نحن على استعداد لها ؟

- العقود تخفف المخاطرة .

- نوع المشروع تخصصي جداً.

- يمكن أن نستعين بالمكاتب الاستشارية .

- حتى المكاتب ليست متخصصة في هذا النوع من المشاريع .

- لابد من وجود خبراء هنا أو هناك .

- يمكن أن نجد خبراء هذا النوع في الجامعات .

- إذن ؟

- سأنهي الموائمة مع (الجازي) وأبعثها له.

- لندفع موعد العميل إلى ما بعد عودتي.

- لك ذلك.

بعد حواري مع (شادن) استراح نصف عقلي , بقي النصف الآخر يفكر في القرار المهم , ما بعد حصولي على الجائزة هل أكمل الطريق في المؤسسة أم أحولها إلى شركة ذات مسئولية محدودة أم أعين مكاني رئيساً لها وأتفرغ للحصول على الدكتوراه وهل سأدرسها في الداخل أم في الخارج ؟

كل تلك التساؤلات وغيرها حزمتها مع أمتعتي قبل أن أنطلق إلى المطار الذي وصلت إليه عبر سيارة أجرة من إحدى تطبيقات التوصيل , دخلت في غيبوبة السفر , الأمتعة , بطاقة الصعود , الجوازات , قهوة الانتظار وصالتها .

تبقى على موعد الإقلاع ساعتين , لماذا حضرت مبكراً , هل لإنها رحلة دولية؟ أم هروب من ملاحقة العمل ؟ لا أدري , فتحت الجهاز اللوحي لأكتب بعضاً من هذه الرواية , لكن هناك رغبة أخرى لأن أرى من حولي الفضاءات أتحفز بحكم التخصص لأن أتأمل المكان من منظور التصميم الداخلي.

قال لي (عيطموس) : ألست في إجازة ؟!

أجبته : بلى.

- فيم التفكير بعقلية المهندسة ؟

- ماذا أصنع يومي كله في فنون العمارة.

- ألغي الإجازة وعودي للعمل.

- هذه الأسبوعين أو الثلاثة التي أملكها من اثنان وخمسون أسبوعاً.

- إذن .. أكتبي.

شرعت أكتب .. توقفت أصابعي على شاشة الجهاز اللوحي مثلما توقف عقلي أمام السؤال الصعب : الدراسة أو العمل , الدكتوراه أم المؤسسة ؟ كانت هناك تجربة سابقة في مرحلة الماجستير , كادت المؤسسة أن تقع في الإفلاس, ليتني وقتها أخذت مبكراً نصائح (ليان) و(شادن) مبادرة (رويدا) لإحضار (ميشيل) أخرجت المؤسسة من جزء من المأزق.

أتفادى نظرات (عيطموس) المعاتبة , قررت أخذ الإجازة من العمل لذا لا مزيد من الأفكار حول هموم العمل أو النظر للأشياء من منظور التخصص خلال العشرين يوماً القادمة تركيزي في ممارسة هواياتي والاستمتاع بالحياة.

تذكرت السلة القماشية في مكتبي , تلك السلة تثير خوف (عيطموس) بطريقة عجيبة , كلما استخدمت محتويات السلة أو فكرت فيها أجد "عيطموس" يكاد أن يتلاشى أو يختفي في تلك الساعات أو اللحظات.

جاءت فكرة السلة حين كُنت في الواحدة والعشرين , اقترحت علي (شادن) أن أمارس هواية لأخرج من ضغط الدراسة والعمل في آن واحد , تهوى (شادن) العزف على البيانو والكمان ربما نزولاً عند رأي غوته الذي ينقل عنه قوله "أن الموسيقى هندسة سائلة والعمارة هندسة جامدة" وإن كانت لا تهوى (شادن) القراءة في الفلسفة كثيراً أما هوايتها فأنها تقرأ وتسمع فيها كثيراً .. بدون مبالغة كثيراً جداً , بل أنها أخذت دروساً في الموسيقى لتطوير موهبتها.

أما (ليان) فهي تهوى السباحة والغوص , لا يمضي أسبوع واحد تقريباً دون أن تكون قد مارست إحدى هاتين الهوايتين لديها , سواء في مسبح النادي الذي نشترك فيه ثلاثتنا أو في البحر حين يتسنى لها ذلك.

لم أهوى أي آله موسيقية ولدي "ثالاسوفوبيا" , لذا وجدت الهواية التي أميل إليها ووجدت نفسي فيها , تلك الهواية اكتشفتها حين قمت على تنفيذ إحدى التصاميم المعمارية , كان ذلك التصميم من أولى الأعمال التي نفذتها.

انطلق النداء الأول للمسافرين ومع ذلك استمررت في الكتابة , تصرف لازمني منذ سنوات أو طبع ألتزمت به لعدد من السنين حتى أصبح سلوك ملازم لدي , لا أذهب إلى ممر السعادة - كما يقال له – إلا بعد النداء الأخير أو اقتراب إغلاق البوابة أو خلو صالة الانتظار.

ركبت الطائرة ترافقني أفكاري وصديقي (عيطموس) وعدة حلقات باقية من المسلسل الذي أتابعه حملتها على الجهاز حتى أقطع الوقت بها , قبل أن أشغل الحلقة الخامسة راجعت جدول الإجازة الذي أعددته.

أرقام الجهات ذات الاختصاص وشريحة البيانات هما اللذان خرجت بهما من مطار الدولة التي أتواجد فيها بعد رحلة استغرقت مدة يوم عمل , كيف وصلت إلى الفندق الذي حجزت به يومان لا أتذكر , الشيء الوحيد الذي أتذكره أنني استيقظت في الثانية ليلاً أشعر بالجوع.

النزول في هذا الوقت مخاطرة حتى داخل الفندق , لا أعرف ماذا يمكن أن أقابل خصوصاً في بلد أزوره للمرة الأولى , لا يوجد طلبات للغرف سوى مشروبات من المقهى أو مشروبات ذلك المكان الآخر , لا أشرب المنبهات بعد السابعة ولست من مرتادي المكان الآخر , أخرجت ما لدي في حقيبة الظهر من بقايا المسليات والوجبات الخفيفة تناولت وجبة العشاء المتأخر مع عصير جاهز , ما أصلحه في قرابة خمسين أسبوعاً أفسده في أسبوعين أو ثلاثة.

عدت للنوم ولم أستيقظ إلا قبل انتهاء موعد الإفطار الصباحي بنصف ساعة كيف تمكنت من الوصول قبل إغلاق البوفيه وتناول الطعام والعودة إلى الغرفة مع انتهاء النصف ساعة لست أعلم , في بعض الأحيان قد يكون أن اختبار الحاجات الأساسية يدفعنا لأن نتغاضى عن الحاجات الكمالية.

بعد الظهر ذهبت لتسجيل جواز السفر في القنصلية وشراء بعض لوازم البقاء في الكوخ , عُدت منهكة من السير والتسوق واكتشاف الأماكن وطبائع السكان لا يمكن الحكم على شيء أو شخص من المرة الأولى , أؤمن بالانطباع الأول وأؤمن أكثر بالانطباع النهائي.

في اليوم التالي كان موعد الذهاب إلى الكوخ : كوخ الاعتزال , يقع الكوخ ضمن مجموعة أكواخ أخرى جميعها تحت إدارة منتجع واحد على مساحة أكبر من مئة ألف متر مربع , حسب الإعلان المنشور على موقعهم والذي ذكروا فيه عدة ميزات للمنتجع , من ضمنها مسار الطبيعة الذي يعتبر مقصداً للهواة والمغامرين والمستكشفين , وخدمات عديدة من ضمنها خدمة التوصيل المجاني طوال فترة الاستجمام إلى بلدة "رينا مارينا" وخدمة الجولات السياحة للمواقع والأماكن الأثرية الموجودة في المنتجع .

بعد ساعتين من السفر بين الجبال والهضاب التي ارتدت غلالة من أطياف ألوان الخريف الأرجوانية والصفراء والبرتقالية , وصلت برفقة المجموعة السياحية التي حجزت في نفس المنتجع والذي أرسل لنا حافلة صغيرة لإيصالنا يقودها رجل أشك أنه أرتاد ذلك المكان الآخر قبل قيادته للحافلة.

من هناك أنطلق كل أثنين أو عائلة إلى الأكواخ التي حجزوها , مع سائقين يقودوا مركبات مهجنة بين الدراجة النارية والسيارة , وصلت إلى الكوخ وحالماً رأيته طلبت من السائق إعادتي إلى إدارة المنتجع.

- لا .. ليس هو الكوخ.

- متأكدة يا سيدتي .. (قاطعت موظفة الاستقبال)

- لست متزوجة.

- عفواً آنسه.

- لا بأس.

- الحجز يظهر هنا أن هذا هو الكوخ.

- والحجز الذي أريتك إياه يثبت العكس.

- ربما حصل خطأ ما !

- وفي انتظار معالجة هذا الخطأ.

دخلت موظفة الاستقبال إلى مكتب داخلي وخرج معها رجل قد يكون مدير الاستقبال قال لي : كيف أخدمك آنستي ؟

- أعتقد أن موظفة الاستقبال أخبرتك بالمشكلة .

- هل يمكن أن أرى الحجز ؟

- تفضل.

قلب مدير الاستقبال عينيه بين الدفتر الذي على الطاولة وبين الورقة التي مددتها له ثم قال :

- يبدوا أن هناك خطأ ما.

في تك اللحظة فهمت المسرحية التي يقومان بها , لهما ذلك , سألعب دوري قلت له : فضلاً أتصل على هذا الرقم وأريته رقماً مسجلاً في هاتفي , نظر في بداية صعود بصره بنظرة استعلاء بطريقة يريد إشعاري الذنب , حالما رأى الرقم الذي يعرفه جيداً أكفهر وجهه وتحول خده الذي صعره إلى قشرة ليمون فيما تحولت ملامحه وكأنما عُصر لبابها في فمه.

- يمكننا إيجاد حل.

- هناك دائماً حل.

قدم المنتجع كوخاً بديلاً له إطلالة على البحر , عَدت لهم وأخبرتهم أن الكوخ ليس هو المطلوب , أكره النظر إلى البحر والحجز كان وسط الغابة , مع حلول المساء كُنت قد استقريت في الكوخ المطلوب.

لست سائحة مزعجة ولست زائرة مغفلة , الكوخ الأول أصغر من الكوخ الذي حجزته يكاد أن يكون ربع مساحته , كيف لا أعرف ذلك وتخصصي وعملي مبني على الأبعاد الهندسية , والكوخ البديل يقع على البحر أما الكوخ الذي حجزته فإنه بعيد عن البحر وله مساحة مناسبة لاحتياجي أثناء الأسابيع التي سأقضيها فيه , تصميم الكوخ يشبه ... قاطعني (عيطموس)

- ألم نتفق أن تتركيها هناك ؟

- عذراً صديقي .. طلبت مني أن أكتب.

- لا ضرورة للتفاصيل الهندسية.

- أعدك أن لا أتطرق لها .. ما استطعت.

يتم الوصول إلى الكوخ عبر سبعة درجات خشبية , عوارض بطول متر ونصف في ثلاثون سنتم , نظر إلى (عيطموس) أجبته : هذه المرة فقط ! أعطى لي نظرة تعجب وأشاح بوجهه , لابد من النزول عند أمره .

قبل أن أغلق ملف الرواية لإكمال الحلقات الأخيرة من المسلسل ثم العشاء والإيواء إلى الفراش , فكرت أن أتخلى عن الكتابة على الجهاز اللوحي وأجرب الكتابة اليدوية بالدفتر والقلم , تلك الكتابة التي يعرفها جيلي.

في صبيحة اليوم التالي استيقظت ممتلئة بالراحة , النوم مبكراً والاستيقاظ المبكر لذة لا يعرفها الكسالى , وجدت الجهاز قد نفذت بطاريته , لا أعرف في أي حلقة نمت , آخر ما أتذكره هي وجبة العشاء وتشغيل المسلسل.

هاتفت إدارة المنتجع طلبت إحدى الخدمات التي يقدمونها , مركبة التوصيل تلك المركبة الهجينة التي يستخدمونها سواء لإحضار طلبات أو إيصال الأشخاص إلى مقر إدارة المنتجع أو إلى البلدة التي تقع على بعد مسافة قريبة.

أوصلني السائق إلى البلدة , بنيت تلك القرية الكبيرة الوادعة قبل مئات السنين بالحجارة والخشب , لا تزال تحتفظ برائحة الطبيعة , الدخول إلى بلدة "رينا مارينا" عبر ممر كأنما هو نفق عدا أنه ممر حجري يعلوه جسر مشاة عريض يصل بين طرفي البلدة , تتسلل أشعة الصباح من خلال الغيوم عبر ذلك الممر كأنما هي عامود من التفاؤل يضيء عتمة الممر الحجري ليتلاقى مع رمح تمثال رخامي، أوقفني السائق حيث طلبت منه عند باب متجر فيروزي كان مشرعاً , متجر هادئ يبيع كل شيء كأنما هو لوحة ديكوباج حية , رسمت منه جزءً حين عدت له لاحقاً بعد فترة طويلة نسبياً , وكانت هذه رسمتي له .



أخذت ما وجدت من الأدوات والمواد التي جئت أبحث عنها , الأهم أنني خرجت بدفتر ملاحظات متوسط الحجم وقلم وألوان خشبية مع مرسام , قبل أن أخرج من الباب الخشبي ذو الجرس المعلق أعلاه نادتني العجوز البائعة عدت إليها فوضعت منديلاً حريرياً حول رقبتي , حاولت أن أدفع قيمة

المنديل المرجاني اللون رفضت ضممتها وأنا أشكرها , ترجمت لي على ما يبدوا أبنتها قائلة : تشبهين الحياة في جمالها.

خرجت من لدنهما ممتنة لهذا الشعور الجميل وقد أكون هاربة من شعور الحرج الذي تمازج معه حينها , عدت للكوخ لم يكن كوخ "هاريت ستو" لاتزال حقائبي كما وضعتها , أنزلت حقيبة الظهر عن كتفي التي أخذتها معي إلى البلدة , نظرت إلى الكوخ دعني أصفه , قاطعني (عيطموس)

- ألم نتفق أنها إجازة ؟

- لا شأن للإجازة بالوصف.

- مهرة .. من تخادعين ؟

- لا أحد .. دعني وشأني.

- ألست ... (قاطعته)

- لا .. دعني وشأني.

خرج (عيطموس) من باب الكوخ لحقت به ولم أجده , أعود لوصف الكوخ لحظة لماذا أصفه؟ أذكر في محاضرات الرسم المعماري أخبرنا حينها المحُاضر الجملة الذهبية ((دورنا أن نحول الأفكار والمشاعر إلى رسومات والرسومات إلى مخططات ونحول تلك المخططات إلى واقع يجسد الأفكار والمشاعر بطريقة إبداعية تجمع بين علم المثلثات وعلم الجمال)) هذه الجملة لا أنساها ما حييت لأنها كانت مفتاحاً لكل عقدة في تصميم أو في مراحل التنفيذ أو حتى لوصف منظر أو شعور .

لذا بدلاً أن أكتب شكل الكوخ من الداخل سأرسمه بما يفي الغرض , أخذت دفتر الملاحظات الجلدي والمسطرة والمرسام والألوان لأخرج هذه الرسمة :



بعد أن أنهيت الرسم أخذت قطعة الورق نصف المقوى التي أخذتها من ... أووه يا لبلاهتي لم أسألها عن أسمها تلك العجوز الطيبة من المتجر الهادئ , والتي حين سألتها عن سعرها أخبرتني عن طريق الفتاة أنها تستخدمها للتغليف.

علقت الورقة على الجدار الخشبي المقابل لدرج الصعود إلى الأعلى , لم أرسم ذلك الجزء الذي يتكون من سرير بين طاولتان صغيرة بجواره أريكة لشخصين ودولاب ذو ثلاثة أذرف , بعد أن رسمت خطاً عامودياً في منتصف الورقة كتبت في الركن الأيمن العلوي حرف "W" وفي الركن الأيسر العلوي حرف "S" وأعني بهما الدراسة والعمل, لا أعرف كيف تذكرت "SWOT" مما جعلني أقسم الورقة عبر رسم خط أفقي لأكتب في الركن الأيمن السفلي حرف "T" يقابله في الركن الأيسر السفلي حرف "O"

قمت على تقسيم كل مربع إلى نصفين في الأيمن منهم جميعهم كتبت "PHD" وفي الأيسر منهم جميعهم كتبت "EST"قررت بعد إنتهاء الإجازة بأن أقوم على تحليل النتائج التي تخرج وعليها سأتخذ قراري بين الدكتوراه والمؤسسة.

- كنت أظن بدأت في هوايتك.

- أهلا .. متى عُدت ؟

- بعد أن تأكدت أنك لن تعودين لها .

- وكيف تأكدت من ذلك .

لم يجب(عيطموس) عن سؤالي , ربما لأنني انشغلت ساعتها بفتح حقائبي وإفراغ ما فيها بعد أن استعملت الطقم الاحتياطي الذي أضعه بحقيبة الظهر.

هل هي من عادات السفر لدي أو أنه سلوك طبيعي يفعله الآخرون ؟ أحمل معي دوماً سواء في رحلة قصيرة أو طويلة ثلاث حقائب الأولى حقيبة الملابس متوسطة الحجم 24 أنش مع حقيبة اللوازم بداخلها وحقيبة الظهر التي أضع بها الجهاز اللوحي , الشواحن , طقم ملابس احتياطي مع منشفة وغيرها من لوازم السفر أو مستلزمات شخصية للطوارئ.

بينما كنت أرتب الملابس في الدولاب الذي بداخله خزانة حفظ , استغربت من وجود الفستان الأسود , هل قمت على وضعه مع الملابس دون أن أعرف ، لا أعرف , قد يكون اتصالي مع (ميشيل) حول عقد مشروع قائم هو سبب عدم ملاحظتي وضع الفستان الأسود.

منذ سن المراهقة واستقلالي بقرار اللباس في حضور المناسبات الاجتماعية والعائلية , كنت ولازلت لا أرتدي سوى اللون الأسود , حتى أكون دقيقة أكثر يكون اللون الأسود الأساسي في الخامة وأي لون أو موديل في بقية التفاصيل.

يقول(عيطموس) : ولدت مهرة عام 1986م في أسرة باذخة الثراء لأبوين من سلالة أسر ثرية حيث توارثت عائلة والدها أعمال المقاولات والمعمار فيما توارثت عائلة والدتها أعمال النقل والخدمات اللوجستية.

كان الفارق العمري بينها وبين أخيها الوحيد حتى احدى المراحل من حياتها ستة سنوات , لذا درجت أولى مراحل الطفولة بين رعاية المربية واللعب مع أطفال من نفس طبقة عائلتها التي أنشأتها على أسلوب حياة الرفاهية المحددة بقوانين صارمة وفق تقاليد الطبقة.

لم تغطي تلك الحياة الفارهة جميع احتياجاتها في ذلك السن , تكون لديها في ذاك العمر الصغير تصورات عن طبيعة العلاقات الأسرية التي لم تكن طبيعية في عرف الناس ولا في مناهج التربية.

المدرسة الخاصة التي انتظمت فيها لم تختلف بيئتها التربوية والاجتماعية عن تلك التي تعيشها في المنزل ولدى الطبقة التي ألفتها ومع ذلك كان لديها فروقاً فردية تميزت فيها عن الأخريات في المدرسة سواء في الدراسة النظامية أو في الأنشطة الطلابية التي كانت تشارك بها كل سنة.

أولى ملامح التميز هي التفوق الدراسي , منذ أن بدأت في الصف الأول وحتى تخرجها من المرحلة المتوسطة كانت في منافسة تعاونية شرسة على المرتبتين الأولى والثانية , عدا آخر سنة في المتوسطة حين احتلت المرتبة الثالثة.

من تلك السنة بدأ مستواها الدراسي في الانحدار حتى تخرجت من المرحلة الثانوية ضمن قائمة العشر الأوائل , هل كان لمجموعة الأحداث التي حصلت لها خلال الأربع سنوات تلك دور في التعثر ؟ بحسب وجهة نظرها قد يكون .

عدا حادثة الغرق التي وقعت لها في الثالث الثانوي حين نظمت المدرسة رحلة طلابية عبارة عن يوم كامل في البحر , ذهبت مع تلك الرحلة إلى المنتجع الساحلي الذي يبعد عن المدينة التي تقطن أسرتها بها قرابة الساعة.

لولا وجود المنقذين لكادت أن تكون في عداد الأموات , وإن نجت من حادثة الغرق تلك إلا أنها لم تنجو من الغرق في الحزن حين عادت للمنزل وأخبرتها المربية أن أخاها (ماهر) قد سافر.

تعلم عن سفر(ماهر) وأن هناك ترتيبات بعد فشل أخيها لعامين متتالين من الانتظام في الجامعة , وعن فكرة والدها إرسال (ماهر) إلى الخارج للدراسة هناك , لكن لم تكن تعلم عن بقية تفاصيل السفر وموعده.

كان (ماهر) بالنسبة لها الحاضر الغائب , رغم اختلافهما في كل الجوانب إلا أن له حساً وحضوراً يكسر رتابة الحياة التي تعيشها في القصر , كان له طيف وجود يملأ فراغ المكان الذي يمتلأ بالزخارف والنقوش الفاخرة.

لم تكن حادثة الغرق ورحيل (ماهر) هما الحادثتين التي أثرت عليها لاحقاً في التحصيل الدراسي , في النصف الثاني من ذلك العام تهادى إلى أسماعها من والديها لفظة جديدة لم تكن متداولة بينهما من قبل.

هل كانت الأنانية سيدة الموقف حين حدث الانفصال بين والديها وهي في الاختبارات النهائية ؟ يمكن القول بذلك لأنه في نفس فترة الاختبارات تزوج والدها فيما تزوجت والدتها بعد إجازة الصيف البائسة.

بقيت إجازة الصيف مع والدتها التي أشترت القصر من والدها وكأنما (مهرة) هي من بقايا الأثاث والمقتنيات التي بيعت , بعد الإجازة خصصت لها والدتها فيلا ملحقة تقع داخل حرم القصر , وجهتها للعيش فيها لرغبتها العيش في القصر مع زوجها الجديد.

في تلك الفيلا توثقت صداقتي بها التي كانت بداياتها في وقت مبكر حين كانت تعيش بالقصر , حين ظهرت للوجود لأبقى معها , أخبرت المربية عن وجودي فقالت لها "تلك روح هائمة من أحد الأزمنة لم تجد جسداً تسكنه أو هي روح من الأسلاف تناسخت حتى وصلت إليك لحمايتك" رغم سذاجة عقلها لم تصدق كلام المربية التي تختلف ديانتها عن ديانة (مهرة) والتي لم يقنعها الجواب , وحين سألت (ماهر) أخبرها أنه مجرد خيال ولم تسأل أحد بعده قط.

يعلم عن وجودي في حياتها (شادن) و (ليان) فقط , حين تقدح في ذهن (مهرة) فكرة إبداعية تمازحها (شادن) بقولها " هل أتت من عيطموس ؟ " أما (ليان) فإنها حالماً ترى (مهرة) في مزاج سيء تسألها "هل أغضبك عيطموس؟ "

بعد هذه السنوات لا يمكنني أن أحدد طبيعة علاقتي معها , تارة نتجادل جدال الأصدقاء وتارة نتحاور حوار المحبين وتارة نتناقش نقاش الأخوة ومع ذلك لاتصنيف لدي في حياتها سوى أنني وهي الصديق الذي لايعرف سوانا سواه.

لم تتخذ (مهرة) صديقاً من الطرف الآخر نهائياً , ما يجعلني متأكد من ذلك حد اليقين والدتها ولداتها , عاشت (مهرة) منذ الطفولة في سباق المقارنات مع الأخريات , من قريباتها وبنات صديقات والدتها , دفعها ذلك لأن تخالف كل سلوك القرينات الذي كان خلف الستار.

عندما بلغن مرحلة المراهقة بدأت بعضهن في سلوك طرق متعة أو لعب متنوعة , أرجيلة , علاقات , وغيرهما , لكن (مهرة) نأت بنفسها عن كل تلك الطرق لسبب بسيط , هو أنها حين تسمع الانتقاد الموجهة لها والمقارنة بينها وبين الأخريات من والدتها تردد في داخلها " لست تعلمين ما يفعلون" وهذا مادفعها لأن تتفوق عليهن في تجاوز تلك الأشواك والخروج من تلك المرحلة بسلام ودون خدش أخلاقي واحد.

هي ليست عيطموساً أو معصومة ولكن تعلمت من أخطائها وهفواتها وزلاتها التي لا أرى ضرورة لأن أدونها عنها وهي سابحة الآن في دنيا الأحلام , تلك الأحلام التي رافقتها منذ الصغر وتسعى لتحقيقها.

من أحلامها أن تكون شخصاً ذا أهمية يصنع فرقاً في العالم , انقسمت أحلامها إلى نصفين أحدهما تحول إلى طموحات تحولت إلى أهداف حققت (مهرة) جزءً منها وبقي جزءً آخر , والنصف الآخر من الأحلام تحول إلى أفكار تمازجت مع المشاعر وخرجت تلك الأمشاج في لوحاتها وتصاميمها الهندسية.

العلاقة بين لوحاتها الفنية وتصاميمها علاقة وثيقة و إن كانت الأولى أسبق من الأخرى بعدة سنوات , موهبتها الفذة في الرسم بدأت في المرحلة الابتدائية,في تلك المرحلة كثيرات من زميلاتها بالصف ومعلمات المدرسة لم يصدقوا درجة إتقانها بمن فيهم معلمة التربية الفنية التي لم تصدق موهبتها بادئ الأمر حتى شاهدتها ترسم إحدى اللوحات التي طلبتها منها , هل السبب في إتقانها ، موهبتها الفذة أم زياراتها إلى مؤسسة والدها ؟ ربما كلاهما.

لم تتوقف (مهرة) عن الرسم يوماً بدأت بالمرسام مروراً بالباستيل والفرشاة وصولاً إلى الديكوباج والكولاج في التعبير عن إحساسها , ذلك الفن البغيض الذي كلما اقتربت منه هي أكثر أبتعد عنها أكثر.

بيني وبين فنها الذي تفضله عداء شديد منذ أن بدأت بتعلمه في سنواتها الجامعية , أصبحت لا أطيق النظر إلى ذلك الإنتاج الفني مما دفعني للابتعاد والغياب , حين عملت في المؤسسة كانت تخصص عمل ديكوباج مع كل مشروع تقوم به , تستخدم أعمالها لاحقاً في مشاريع التصميم التي تستلمها.

في دراستها الجامعية التي تخصصت في الهندسة المعمارية لم تختلف كثيرا عن سعيها الدؤوب نحو التفوق وإن كانت مساحة التفوق تلك ضمن قائمة العشر الأوائل , لم تدخل إلى ذلك التخصص برغبتها بل دفعت إليه مرغمة.

كانت رغبة والدتها أن تدرس الإدارة أو التجارة فيما كانت رغبة والدها أن تدرس الطب أو الهندسة , تجادل الاثنان حول التخصص الأنسب لها واتفقا على إجراء قرعة بين الأربعة تخصصات مثلما أجروا قبل ثمانية عشرة عاماً قرعة للاختيار بين أسم (مهيرة) الذي يريده والدها والاسم الذي تريده والدتها.

رغبة (مهرة) لم تكن ضمن التخصصات المطروحة , ذهبت مع التخصص الذي اختير لها وحين وجدت نفسها أمام الواقع وضعت الاثنان أمام الأمر الواقع وجعلتهم يختاروا لها إما الدراسة في الخارج أو في جامعة حكومية .

كان تصرفها ذلك نوع من الاحتجاج والتمرد الذي قد يدفع والداها للنزول عند رغبتها في دراسة الفنون وفي أسوأ الحالات إرسالها للخارج مع أخيها وهناك يمكنها دراسة هذا التخصص إلى جانب تخصصها الرئيسي.

لكن والديها كانت لهم حسابات أخرى , أهمها هجرة أخيها الطوعية إلى الخارج وصدمة الجميع بخبر عدم رغبته في العودة وتوجهه نحو الاستقلال بحياته هناك , وهذا ما دفع الوالدين لصرف النظر عن فكرة إرسالها خوفاً من تكرار ما حصل مع (ماهر) فضلاً عن أن الأوضاع في كثير من البلدان المقترحة للدراسة يوجد فيها ما يدعو للقلق.

في تلك المرحلة الحرجة نفثت آلة الإعلام الضخمة كمية هائلة من الأخبار والتقارير عن وطن أسرة (مهرة) وكانت تلك الآلة مثل ثور هائج في حلبة مصارعة لم تترفع عن الكذب أو دس السُم في العسل.

رغم الخيارات الصعبة التي تظن (مهرة) أنها وضعتها أمامهم كان الخيار الوحيد المتاح هو دراستها في جامعة حكومية , آملين أن تعود لهم بعد سنة وتطلب نقلها إلى جامعة خاصة , فهي لم تنشأ في بيئة متعددة الطبقات.

نزلت (مهرة) عند اختيارها الذي وضعته وخابت توقعاتها , بالنسبة إلى والديها خسارة سنة من العمر لا بأس بها مقابل حياتها وسلامتها , بالنسبة إليها كان لابد أن تثبت للجميع أن قرارها صائب وإن تجرعت مرارته.

ظلت تفكر خلال السنة التحضيرية في كيفية حصولها على موافقة والديها في الانتقال إلى مدينة أخرى , هل سوف يفتقدونها حقاً وكل واحد منهما يعيش حياته الجديدة في معزل عن الآخر , لا يجتمعان إلا حين يكون هناك مواضيع تجارية متعلقة بين أسرتيهما (سلطان) و (سجى) أو متعلقة بابنتهما (مهرة).

أنجب الاثنان منذ انفصالهما أربعاً (مياسة) و(ريماس) أختيها من والدها و(باسل) و (جسار) أخويها من والدتها , فيما كانت علاقتها مع هؤلاء الأربعة لا تتجاوز حدود المجاملة والتعامل المحدود في الأوقات القصيرة التي تلتقي بهم فيها والتي غالباً ما تكون عابرة وغير منتظمة.

قبل نهاية السنة التحضيرية التي لم تخلو من أيادي خفية كانت تساعدها فيها حيث قامت تلك الأيادي بالمساعدة بناءً على علاقات والديها المجتمعية قررت أن تضرب رأي الاثنان في بعضهما البعض حتى يقبلان برأيها في كلا الحالتين سواء كان رأي والدها أو والدتها أو اقترعوا على الرأي بينهم.

أخبرت والدها أنها تفكر في افتتاح مكتب لإحدى شركات والدتها في مدينة أخرى حيث أن الفرص هناك واعدة , ونفس الأكذوبة أخبرت والدتها عن فرص ذهبية لأعمال مؤسسة والدها , ولكن كاد تخطيطها أن يتحول إلى هباء.

يعلم كلا والديها أن المدينة التي تقصدها (مهرة) بها ما يكفي من المكاتب لتغطية السوق وأن وجود مكتب آخر لن يؤثر في السوق أو يزيد من حجم أعمال شركة والدتها طالماً أن هناك مكتب خارجي يقوم بالمهام المطلوبة منه سواء لشركة والدتها أو شركات أخرى.

وفي المقابل افتتاح فرع لمؤسسة والدها أو لإحدى الشركات المشارك بها لن يخدم كثيراً في توجه والدها نحو المنطقة التي يسكن بها وعدم وجود رغبة لدى والدها أو شركائه في التمدد خارج المنطقة التي يعملوا بها.

وجد والدها فكرة من خارج الإطار الكلاسيكي للتفكير وأتخذ خطوة جرئية في سبيل أن تساهم تلك الخطوة في نضوج (مهرة) , أخبرها عن ترتيبات لافتتاح فرع مستقل لمؤسسته في المدينة التي تود (مهرة) الانتقال لها , ترك لها الاختيار في أي أقسام المؤسسة ترغب العمل به , كانت الخيارات المتاحة أمامها قسم المحاسبة , الهندسي , الإدارة.

اختارت (مهرة) القسم الذي تخصصت فيه بالجامعة التي انتقلت إليها , الراتب البسيط الذي تحصل عليه من المؤسسة إضافة إلى المكافأة الجامعية كانا الميزانية الأساسية التي تبني عليها (مهرة) مصروفاتها الشهرية , السكن والعلاج والمواصلات كان من ضمن التكاليف التي تحملتها المؤسسة.

ثلاثة أبواب ستقودها إلى ثلاثة عوالم الأول باب الحياة الجامعية التي لم تتدخل فيها أيدي خفيه مساعدة , وباب الحياة الوظيفية التي تتحكم بها تلك الأيدي الخفية علانية , وثالث الأبواب هو باب المجتمع البرجوازي الجديد الذي انتقلت إليه وبدأت في نسج علاقات عامة فيه.

اكتشفت المعادلة الخطأ والتي صححتها لها (شادن) في وقت لاحق , كانت تظن أن الباب الأول+الباب الثاني = الباب الثالث , حين تم قبول (شادن) في القسم الهندسي بالمؤسسة والذي تحول أسمه لاحقاً إلى القسم الفني ، تعرفت عليها (مهرة) وعلمت أنها تدرس في نفس تخصصها الجامعي ولكن في جامعة أخرى وقد طلبت التوظيف للتدرب قبل تخرجها.

المقاومة التي واجهتها (مهرة) منذ اليوم الأول في المؤسسة جابهتها بشجاعة تلك الشجاعة لم تنبثق من فراغ , بل كانت نتيجة تجربة حياة بسيطة جعلتها تدرك مبكراً أن أفضل أساليب الدفاع هو الهجوم.

كان الهجوم الذي تعرضت له (مهرة) يأتي على صورة فخاخ ومصائد ترد عليه في هجوم لا مباشر على هيئة مكائد ودسائس , نزلت على رأي (شادن) ونسقت جدولها الجامعي في الفصل الثاني حسب ساعات العمل في المؤسسة.

استطاعت خلال أشهر قليلة أن تنسق ساعات اليوم والأسبوع بين الجامعة والمؤسسة والنادي والحياة الاجتماعية متعددة الطبقات , تلك الحياة التي كانت باباً آخر أخبرتها عن أهميته (شادن) وكيف أن لهذا الباب دور في معادلة الحياة.

نـتائـج ذلـك التنسيق جـعلتها تـبحث عـن الأهـم فـي كـل بـاب , ليس مـا يـوجـد خـلف كـل بـاب يستحق عناء الجهد أو الوقت , هناك زخارف ونقوش ليس لها أهمية بل أن بعضها ضرره أكثر من نفعه أو مجرد تَهاويم تخفي حقيقة ماوراء ذلك الباب.

انقطاع المكافأة لم يؤثر كثيراً عليها , كان ضارة نافعة حين أبلغت والدها الذي أتصل للاطمئنان عليها لتجد في الشهر الذي يلي الاتصال زيادة في راتبها بما يعادل ضعفي المكافأة لكن (مهرة) لم تقبل تلك الزيادة إلا بمقابل.

توجهت إلى مدير الفرع وثاني كبير المهندسين فيها وطلبت منه أن يكلفها بأعمال أو يعيد راتبها كما كان , لم يكن من مدير الـفرع إلا أن نـزل عـند الـخيار الأول وكـلفها بـبعض الأعـمال الإداريـة مؤمـلاً أن تـلك الـيد قـد يـكون لـها أثـر لـدى (مهـرة) ووالدها ذات يوم.

بعض المقررات كانت تسبقها (مهرة) فهماً وتطبيقاً أما المقررات الـتي تسـبق مـهاراتـها فـإنـها تـزعـج الـقسم الـهندسـي فـي المؤسسة حـتى تسـتوعـب المـقرر , مـن طـباعـها حـب الـتعلم والسعي الدؤوب في الفهم والفضول والإلحاح والعناد .

الإلحاح ولد لديها الإصرار للوصول إلى أهدافها والعناد ولد لديـها الـعزيـمة لتحقيق تـلك الأهـداف أمـا الـفضول فكان عـبئاً ثقيلاً حملها تعلم وفهم ماقد يكون لا جدوى منه والدخول إلى أبواب لا حـاجـة لـها بـها وجـميع الـثلاثة كـانت ركـائـز لـها فـي التعلم النظري لمختلف المعارف وفي محاولاتها لفهم الحياة.

- عيطموس !

- مهرة!

- ماذا تصنع ؟

- أكتب عنك.

- ماذا تكتب؟

- أكتب عنك.

- أجننت ؟ .. أسألك ماذا تصنع و تكتب وتجيب نفس الإجابة !

- كلا يا مهرة الإجابتان مختلفتان.

- كيف ذلك ؟.

- أكتب نيابة عنكِ, عنكِ.

- لم أطلب منك أن تكتب عني أو نيابة عني.

- وجدتك نائمة وأحببت مساعدتك.

- كما تتطفل في إنجاز التصاميم.

- هل أصبحت مساعدتي تطفلاً؟

- إذا ماذا تُسمى ؟

- عودي للنوم يامهرة

- هل ستكمل ؟

- أكمل ماذا؟

- تكمل الـ ...

- مهرة .. مهرة

عادت (مهرة) للنوم , تلك من سلوكياتها المعتادة تقوم في منتصف الليل من نومها , بعد نومها بعدة ساعات لتعمل ثم تعود إلى النوم , تنكر حتى الآن أنها تعاني من السير النومي وتصر أنها لا تقوم من الفراش منذ أن تأوي إليه.

الجميع أخبرها أنها تسير وتتحدث أثناء نومها , لكنها كذبت الجميع وصدقت نفسها , لا يمكن تغير القناعة إذا لازمها الإنكار وكل الأدلة وهمية إذا رافق الإنكار عناد أو مكابرة وكثيراً ما كانت ولا تزال (مهرة) تكابر.

لم تقتصر مكابرتها على الاعتراف بسيرها النومي , بل إلى أي ألم أو وجع أو نقص تشعر به أو تحمله بين أضلعها , لا تبوح بما فيها لأحد تخرج ما بداخلها بالانهماك في العمل والإنجاز , أخذت لها قاعدةً تسير بها في حياتها لن يعرف ما في النفس إلا خالقُها، أمّا البشرُ فليسوا إلا ظلالًا تحاول فهم تلك النفس ولن يعرفوا مافيها إلا بما يشاء الله لهم أن يعرفوا.

الجانب الروحي في حياتها استقر بعد موجات متتالية من الاتجاهات والتيارات التي عصفت بأفكارها ومشاعرها , حتى استقر رأيها وأطمأن قلبها إلى العروة الوثقى التي لا انفصام لها وعزمت رأيها وحزمت أمرها على المضي بها.

بعد أن رأت دور الحياة الاجتماعية في زيادة الفرص المتعددة وكيف هو أثر العلاقات في تلك الفرص , فاتحت مدير الفرع بفكرة إنشاء قسم خاص للتسويق , كان خياراً صعباً بالنسبة إليه هناك عدة اعتبارات قبل اتخاذ القرار.

يعتمد نشاط الفرع كلياَ على علاقات مدير الفرع والتابعين له ممن يعملوا في المؤسسة , إنشاء قسم للتسويق يعني تحويل تلك العلاقات الشخصية إلى علاقات عامة , سمعة أسمه التي بناها بجهد المؤسسة ستعود للمؤسسة.

في الجهة المقابلة هناك (سلطان) والد (مهرة) الذي يراقب عن بعد ويوجه ، محاولة الخروج عن المسار الذي وضعه أو الانحراف عنه قد لا يكون في صالح مدير الفرع والتابعين , عليه أن يعللها تعليل المحتال لضحاياه في سداد ماعليه.

كانت (مهرة) أدهى منه وتسبقه بخطوة , أنشأت قسم التدريب والتطوير في المؤسسة , وكانت بحسب ما وصفت لمدير الفرع تهدف إلى تدريب الموظفين والموظفات في المهارات المختلفة التي لا يمتلكونها أو تحتاج إلى تحسين مستوى وتطوير آليات العمل في المؤسسة.

لم تمضي سنة حتى تم إغلاق شطر التدريب من قسم التطوير وإنشاء قسم التسويق الذي تم تعين (ليان) فيه , والتي كانت آنذاك تبحث عن فرصة وظيفية أعلى في سلم وظائف المختصين بالتسويق.

علاقتها مع (ليان) بدأت حين أنظمت مع (شادن) في نفس النادي الذي تذهب إليه , سألت (شادن) ذات يوم (ليان) عن إسم إنسانة أجابتها (ليان) أنها شقيقتها الصغرى , أخبرتها (شادن) أنها درست معها في المرحلة الثانوية.

ذكاء (شادن) الاجتماعي وتخطيط (مهرة) المدروس استطاعوا من خلاله جذب (ليان) للعمل معهم في المؤسسة بعد أن علموا عن تخصصها وعملها ، كانت (مهرة) قد اتخذت من قسم التدريب والتطوير جسراً لإنشاء قسم التسويق بعد أن وجدت من يمكنها أن توكل إليها مهام القسم.

لم يقتصر الأمر على إنشاء قسم التسويق , مع بلوغها نهاية الخامسة والعشرين من عمرها استطاعت أن تسحب البساط من تحت أقدام مدير الفرع ، أبلغت والدها أنها تخرجت وقدمت على الاختبار المهني وذلك للحصول على رخصة المهندسين وتود افتتاح مكتب أو مؤسسة خاصة بها فما كان من والدها إلا أن نقل المؤسسة بما فيها وبمن فيها باسمها.



في صباح اليوم التالي وجَدت أن هناك بعض الصفحات التي حّبرت , ربما أن (عيطموس) قام على كتابتها , طلبت مركبة التوصيل وذهبت إلى البلدة لشراء بعض المستلزمات التي قد احتاج إليها أثناء سيري في الغابة.

عُدت إلى ذلك المتجر ذو الباب الفيروزي والذي تعمل به العجوز (تالين) وحفيدتها (تالين) حسب ما أخبرتني (تالين) الصغيرة عن أسميهما , لاحظت أن (تالين) الكبيرة تطلب من (تالين) الصغيرة أن تخبرني بشيء ولكن الحفيدة لا تترجم لي ماذا تود الجدة قوله سألتها

- ماذا تريد الجدة ؟

- لا شيء.

تنظر إلىّ الجدة وتخاطبني وهي تشير إلى (تالين) التي أعدت عليها السؤال

- ماذا تريد الجدة ؟

- الحقيقة .. لاشيء .. لاشيء.

أخرجت مبلغاً نقدياً أحمله معي ودفعته للجدة التي ردت يدي وهي تأمر (تالين)

- (تالين) ماذا هناك ؟

- الجدة تريد مني أن أخبرك .

- تخبريني بماذا ؟

دخل رجل إلى المتجر , ذهبت (تالين) لخدمته بينما الجدة تلملم أعصابها بيديها اللتان تفركهما سوياً , لم تلبث أن اندفعت نحو (تالين) وأمرتها أن تعود إلىّ وهي سوف ترى ماذا يريد الرجل , عادت إلىّ (تالين) تحمل الحياء بين شفتيها

- الجدة تريد أن أخبرك أنني رسامة.

- يا للروعة , خبر جميل .. أيمكن أن أرى شيئاً من أعمالك , أنا أيضاً رسامة.

- حقاً .. ظننت ذلك حين أخذت طلبات المرة الماضية.

- أنظري هذه من رسوماتي.

أريت (تالين) رسمة الكوخ , نظرت إلى الجدة التي انتهت من طلبات العميل الذي خرج وقالت لها كلمات بنبرة المتأسفة , أعادت عليها الجدة كلمات وهي تشير علي سألت (تالين) مالأمر ؟ قالت : أخبرت الجدة أنك رسامة. وماذا أيضاً ؟. الحقيقة أنني أريد أن أرسمك في بورتريه. نظرت (تالين) الصغيرة إلى الجدة وأخبرتها بعبارة ختمتها بكلمة أفهمها

من لغتهم تعني الرفض, أشرت إلى الجدة برفع الإبهام وسألت (تالين) : متى تودين أن ترسميني ؟

- هل الوقت مناسب الآن ؟

- لك ذلك.

- الأ تريدين وضع بعض مساحيق التجميل ؟

- ألست جميلة بما فيه الكفاية ؟

قلتها مازحة وضحكت وضحكت كذلك (تالين) قبل أن تقول

- بلى ملامحك الشرق أوسطية تستحق الرسم.

- شكراً .. أنت أيضاً بارعة الحسن.

- أشكرك على هذه المجاملة اللطيفة.

- ما رأيك أن تكون الجدة حكماً بيني وبينك ؟

- أنت أجمل.

- لا .. لست عن الجمال أتحدث.

- عم إذن ؟

- أرسمك وترسميني وتحكم الجدة بيننا؟

- يبدو أنك محترفة .. سوف تغلبيني.

- أرسم المباني والديكورات .. لن أكون مثلك في البورترية.

نظرت (تالين) الصغيرة إلى (تالين) الكبيرة وترجمت لها الحوار الذي دار بيننا , قفز الحماس في جسد الجدة ليستقر بين كفيها التي قامت تصفق بهما وهي مبتسمة , وضعت كرسيان مقابل بعضهما البعض ، أحضرت لكل واحدة منا ورق كانفس ومرسام وجلست خلف طاولة المحاسبة تنظر إلى كلتانا ونحن نرسم , لن أدون هنا أي الرسمتان لي وأي لها , سأترك ذلك وقرار الرسمة الأجمل لمن سيقرأ هذه الرواية , إحدى الرسمتان بيد(تالين) والأخرى بيدي.



عدت إلى الكوخ بعد وجبة الإفطار المتأخر الذي استمتعت به مع (تالين) الكبيرة و(تالين) الصغيرة ووالدها وأخيها اللذان يعملان في معمل محلي صغير لإنتاج الفخار ولديهم تلك النصف ساعة من النهار استراحة غداء.

جهزت حقيبة الظهر للانطلاق مشياً على الأقدام في الغابة , دفتر الملاحظات المرسام وأصدقاءه , الجهاز اللوحي , قارورة الماء سعة نصف لتر , نصف كيلو من الفاكهة المجففة والمكسرات , منشفة وجه , سكين لعدة استعمالات عصا من خشب التفاح البري صنعت على طريقة عصا الماكيلا تستوردها (تالين) الجدة من إقليم الباسك , لا أعرف أين المنديل الذي أعطتني إياه ؟ لعله بين الملابس بحثت عنه ولم أجده , لا بأس سأبحث عنه حين أعود , علي أن أنطلق قبل تأخر الوقت , هناك مسار مخصص أعده المنتجع للراغبين في السير في الغابة , على جانبي ذلك المسار وعلى مسافة مترين منه يوجد سياج معدني مع لوحات تحذيرية عن تيار عالي الفولطية , ربما لوجود حيوانات ضارية تعيش بالغابة .

جعلتني تلك اللوحات التحذيرية أفكر .. لماذا لا يضع العالم مثلها للوحوش التي تعيش بيننا , تلك الوحوش التي اتخذت من جلود البشر وعيونهم وأفواههم أشكالاً إنسانية وفي واقع حالهم هم أشد شراسة من ضواري الغاب.

قادني المسار إلى سفح جبل , إلى يساري أشجار عملاقة من شجر الصفصاف والصنوبر و السرو , إلى يميني صدع في الجبل أتخذ شكل شُعب , لا يوجد حاجز معدني يمنع من الوصول إليه وتجاوزه .

تركت المسار المخصص ونزلت لأكتشف الشُعب إن كان يقود إلى المسار من الجهة الأخرى أو عُدت من حيث نزلت من تلك الصخور متوسطة الحجم مقارنة بالجلاميد الضخام التي يتكون منها الجبل .

تذكرت المحُاضرة التي كانت تدرسنا مادة الثقافة الإسلامية في السنة الأولى من الجامعة , حين قدمت لي نصيحة مغلفة بالحب ومهداة بالعطف , منذ ذلك الحين حين أتحدث العربية لا أستخدم لغة أخرى وحين أستخدم الإنجليزية أو غيرها لا أدخل عليها العربية , الخليط بين اللغتين مثل تلك المركبات الهجينة التي يستخدمونها في المنتجع ليس لها هوية مميزة لها .

تعلمت الإنجليزية والفرنسية واللاتينية في المدارس العالمية الخاصة التي كنت أدرس بها , فيما تعلمت الكورية من خلال متابعة الهانغل أو كي دراما وقراءة المانهوا وسماع الكيبوب ولكن لم أصاب بهوس الكيبوب مثل (ليان) وأخريات.

صوت المشي على الحصى يشبه صوت قرمشة مكسرات في إيقاع أسرع, هدوء إلا من نبض القلب وصوت الأنفاس وهتان خفيف , توقفت لأشرب جرعة ماء, صوت انحدار الماء وابتلاعه يملأ المكان بالضوضاء.

صرخت بصوت منخفض حتى تأكدت من وجود الصدى , قمت على إخراج أصوات مختلفة بنغمات متنوعة حتى أسمع رجع الصدى , سكتت فجأة حين رأيت عن يميني مغارة , هل أدخل وأكتشف ما فيها ؟ هل أعود ؟ هل أكمل طريقي ؟ ماذا بداخلها ؟ أيوجد دفين منسي ؟ خريطة كنز تقود إلى عوالم أخرى؟ هل يسكن بها غول له أنياب وذيل طويل ؟ أم بها مدخل إلى قرية الفراشات التي تتحدث لغة الموسيقى ؟ الفضول والخوف كان رفقائي في تلك اللحظة التي فكرت فيها بسؤال رفيقي

- ما رأيك يا عيطموس ؟

- لا تجازفي.

- تجربة.

- لا تعلمين ما بالداخل .

- أكتشف.

- ماذا لو ... (قاطعته)

- دعني الآن.

دخلت المغارة بحذر , سأمضي بداخلها حتى ينقطع شعاع الشمس الذي يدخل إليها , مسام جلدي تقشعر من برودة المغارة وربما الخوف , أتقدم بخطى هادئة لأكتشف المكان أسمع صوت كأنما هو أرضية دور في مرحلة التشطيبات تحت أقدامي .

كلما تقدمت أكثر كلما أزداد صوت التهشيم ومع كل خطوة تزداد رائحة نفاذة مقززة , نظرت تحت قدماي عظام بالية لفرائس , أيكون قد دخلت إلى وكر مفترس ؟ نظرت ورائي والرعب يتسلل بين عروقي مثل تسلل العرق على جبيني , قطرات الهتان التي عطرت عبائتي وغطاء الرأس بدأت تزداد حدة وشدة , هل أتراجع ؟ لا يزال ثمة شعاع يصل إلى حيث وصلت.

أنظر صوب الركن الأيسر من المغارة , هناك يربض جسد ضخم له عينان لامعة ، تجمدت مكاني، بدأ شعاع الشمس يتضاءل كلما تقدمت خطوة ويزداد المكان عتمة مع ازدياد المطر بالخارج ، تقدمت بخطوات حذرة حتى زاوية المغارة إلى يميني صخرتان كبيرة بينهما فجوة ، رفعت العصا وصوبتها نحو ذلك الجسد الرابض الذي لم يحرك ساكناً منذ أن دخلت.

- أخرجي الآن.

- مه! يا عيطموس.

- ماذا ...

تجاهلت عيطموس ونخست الجسد الضخم بالعصا , أصدر صوتاً ضحكت منه لم يكن سوى صخرة عليها تجمع بلورات صغيرة من الكريستال , شكلت تلك البلورات هيئة عينان أو هكذا صورتها لي "الباريدوليا" الوهم يقتلنا أكثر من الحقيقة في أحيان كثيرة.

نظرت ورائي مجدداً .. صوت يشبه النباح قادم من خارج المغارة , لن اخدع هذه المرة بالأوهام , خطوت نحو طريقي عائدة لأرى ذلكما الكائنان اللطيفان يدخلان المغارة , كومة من الفراء البني .

توقفوا ينظران إليّ , بيننا مسافة في حدود المئة متر , أحدهما ألتفت نحو مدخل المغارة , كأنما ينتظر توجيهاً من بالغ , دخل خلفهما ذلك الجسد الضخم الذي له عينان لامعة.

لم أفكر كثيراً , نفذت من الفجوة التي بين الصخرتان بعد أن ألقيت قبلي العصا والحقيبة , هل الروح لها قدرات خارقة تظهر في الأزمات ؟ لا أعرف وجدت الديسمان يحاولان الدخول من تلك الفجوة , وخزت يد أحدهما بالعصا خرجت من الفجوة يد أضخم وأكبر من خلفها أنف يتحرك مع الاشتمام وفم يصدر صوت قهقعة , لن أكون وجبة عشاء لك ولأطفالك يا جهيزة.

أنثى الدب وجراءها كانوا خلف الصخرتان يحاولان بشتى الطرق أن يصلوا إلى طرف مني , ابتعدت عن تلك الفجوة أبحث عن صخرة أو حجر قد يسدها وجدت تلك الصخرة التي تقارب نصف وزني أو مثل عمري قبل أربع سنوات دحرجتها حتى اقتربت من الفجوة , لو وضعت الصخرة مباشرة ربما أن يد جهيزة تصل إليّ , على أن أبعد يدها التي حالما وخزتها جذبتها نحوها دفعت الصخرة للمرة الأخيرة وسددت الفجوة بها.

جلست على الأرض الملساء الرطبة التي تشبه السيراميك خشن السطح , أخذت جرعة ماء , توقفت جهيزة وأطفالها عن محاولة الوصول إليّ قررت أن أستكشف بقية المكان مع بقية الضوء الذي أراه يتسلل من بعيد عبر فتحة أخرى في الجهة الشمالية من المغارة.

- لا تذهبي.

- عيطموس!

- لو أخذت بنصيحتي ولم تدخلي.

- دعني الآن.

- كيف ستخرجين ؟

- حتماً هناك مخرج.

- وما ...

- حتما هناك طريق.

مضيت حتى وصلت آخر المغارة من الجهة الشمالية , المدخل الذي دخلت من خلاله كان يقع في جهة الشرق , تأخذ المغارة شكل القوس , في الطرف الأول هناك المدخل الذي عبرت من خلاله الدببة والواقع داخل الصدع الصخري وفي الطرف الآخر أرى زرقة السماء تلامس زرقة البحر , كان هذا المنظر الذي شاهدته أمامي حين وصلت للطرف الآخر.



لم أصل إلى حافة المدخل , هناك بقعة ماء تأخذ الحيز الأكبر من المنطقة بين المدخل الآخر وعمق المغارة , تقديرياً عرض هذا الجزء من المغارة ثلاثة أمتار وعمقه عشرون متراً وارتفاعه نحو مترين متفاوتة إلى متر أو ما يعادل ستون متر مربع إجمالي المساحة المسطحة .

- ألن تكتفي ...

- عيطموس .. مه!

رأيت عيطموس يذهب للجلوس على صخرة بالقرب من بقعة الماء , الجهاز اللوحي لا توجد فيه إشارة , بللت يدي ببعض الماء ومسحت وجهي ورقبتي أضأتُ كشاف الجهاز مع اقتراب غياب النهار .

لا أعرف كيف أنقضت ليلة البارحة , تسامرت طوال الليل مع عيطموس على الصخرة القريبة من الماء , كان حديثاً مطولاً في مواضيع شتى , هل كان ذلك لإزجاء الوقت وتبديد الشعور بالرعب , على الغالب كان ذلك السبب .

مع نسائم الفجر الأولى حددت جهة القبلة من اتجاه الشمس التي رأيت موقعها بالأمس , امتزجت أنفاسي الباردة مع رائحة ملحية عند بزوغ الصباح , تجلى المكان داخل المغارة بصورة أوضح مع بداية النهار.

قمت على تفحص المغارة بدقة , عن يميني الصخرتان التي بينهما فجوة , لايزال لدي شعور بوجود جهيزة والصغار , أمامي جدار وبضعة صخور متفاوتة الحجم , عن يساري صخرة ثم فم المغارة , أسند ظهري على جدار تناثرت جواره الصخور متنوعة الأحجام.

تجرأت أكثر وقفت جوار بقعة الماء , هناك مجرى ينحدر من البقعة إلى داخل عمق الجدار عبر جحر صغير , أدخلت العصا لاشيء داخل الجحر , ضربت داخله فتهشمت الحجارة الجيرية , نبهت تلك الضربة جهيزة التي عادت لمحاولة الوصول إليَ من بين فجوات الصخرتان , استمررت في الثقب عبر ضربات متتالية حتى اخترقت عصا الماكيلا الحجر ونفذ ضوء , نظرت داخل الجحر لأرى شاطئ البحر .

عدت للجلوس في مكاني الأول , تناولت حفنة مكسرات مع قطعة فاكهة مجففة هطلت التساؤلات على عقلي دون مقدمات , أهم تلك الأسئلة ما الحل ؟ كيف السبيل للخروج من هذه المغارة ؟ كيف أنجو ؟

صرخت بأعلى صوتي , أثار صراخي جهيزة والدياسم وعادوا لمحاولة الوصول إلىّ من خلف الصخرتان , تلاقت عيناي مع عين جهيزة التي كانت تنظر من خلف فجوة بين الجدار والصخرة , أخبرتني تلك النظرة المرعبة منها أنني فريسة ملاحقة تتحرى الانقضاض والقضاء عليها.

جلست حيث مكاني الأول , حاولت طرد الأفكار السلبية من رأسي عبر تخيل المغارة أنها شقة مصغرة , هنا المدخل وهنا غرفة الاستقبال , يمكن أن يكون هنا المطبخ وهناك الغرفة الرئيسية , تنفست الصعداء حين أزلت عن حجابي الحاجز ما كان ضاغطاً عليه , شعور راحة لا يوصف بالكلمات.

صُدمت حين رأيت جهيزة تقف على قائمتها الخلفية ويسد جسدها الضخم مدخل المغارة , كيف استطاعت الوصول إلى هذا المدخل , عيناها اللامعتان تحمل الهلاك في نظراتها , كشرت عن أنياب صفراء متعطشة للدم ,هجمت بكل قوتها نحوي ! استيقظت فزعة من الكابوس !!

لا أعرف كيف غفوت تلك اللحظات , كنت أتخيل تصميماً لفضاء المغارة خلف الصخرتان هناك أنثى الدب وأطفالها وبعد بقعة الماء هناك المدخل أو المخرج نحو البحر , كلا الخيارين صعبة , لا أستطيع النظر كثيراً إلى المدخل الذي يطل على البحر ولا جدوى من النظر إلى الصخرتان التي بينهما فجوة.

قد تكون هناك سفينة أو يخت أو حتى قارب صغير يعبر من تلك المياه, جمعت ذاكرتي في عدسة مكبرة , ماذا يا ترى يعبر من خلال هذا البحر الواقع إلى الشمال , مصادفة غريبة جهة مدخل المغارة من الخارج والبحر كلاهما يبدأن بالحرف نفسه حرف " S "

كيف تجد عقولنا تلك الروابط , ماذا عن مدخل الدببة يقع جهة الشرق والشرق يبدأ بحرف "E" الحرف الأول من كلمة مؤسسة , أخذت السكين المتعددة الاستعمالات وحفرت على جدار المغارة المكون من الحجر الجيري .

جلست أنظر إل النقش الذي سقطت عليه أشعة الشمس , تلاحقنا الأفكار التي تشغل عقولنا حتى في أصعب المواقف وأكثر الأماكن غرابة وعزلة , بعض الأفكار مثل عيطموس لا يمكن التخلص منها

- هل أردت شيئاً يا مهرة ؟

- عيطموس .. ماذا جاء بك ؟

- ألم تطلبي حضوري ؟

- لا .. كنت أفكر فقط .

- هل تودين أن أبقى ؟

- ذلك شأنك .

تجاهلت عيطموس بالنظر إلى نقش الاتجاهات الذي رسمته على الجدار المقابل للأرض الملساء الرطبة , العلم بحر يغرق من لا يجيد السباحة فيه والعمل وحش ضاري لن يرحم من يستغرق فيه .

قبل أن يهبط المساء كنت أجلس جوار عيطموس على الصخرة المنبسطة جوار بقعة الماء , نراقب سكون الليل وظلمة البحر الذي يخفي زرقته كما يخفي الظلام خوفي منه , هل يا ترى أهرب من ظلام المغارة إلى ظلام البحر أم أهرب من سواد الوحدة إلى سواد الألم ؟ لا أعرف في تلك اللحظة لا أكترث لشيء سوى أحاديث عيطموس.

أشرقت الشمس لليوم الثاني ولم أنم من ثرثرة عيطموس , حاولت أن آخذ قسطاً من النوم قبل ارتفاع الرطوبة والشمس , أسمع حركة الدببة من خلف الصخرتان وصوت البحر عبر المدخل الشمالي.

غفوت سويعات واستيقظت , قررت أن أصل إلى حافة المدخل الشمالي, حالماً وصلت إلى الصخرة التي يجلس عليها عيطموس توقفت عن المشي وجلست على الصخرة ولا سؤال بعقلي إلا كيف السبيل إلى الخروج ؟

إما أن أواجه جهيزة والديسمان وإما أن أواجه البحر وكلاهما مستحيلان , هل أحاول لأجعل المستحيل ممكناً ؟ ممكن , أزلت الصخرة التي تسد الفجوة بعد أن وصلت إليها , امتدت أيدي الدببة من خلال الفجوة.

كانت يد جهيزة ويد أحد الدياسم , الديسم الآخر ذو الفراء الأشهب لم يحاول مد يده , قد تكون نخست العصا آلمته وقد يكون أضعف في الافتراس من أمه وأخيه أو أخته , نظرت من بعيد , أرى وجه الديسم داكن اللون ومن خلفه يظهر الآخر الفاتح اللون ويد الأم تبحث عبر الشقوق الأخرى التي بين الصخرتان وبين جداري المغارة.

ألقيت حبة بندق للديسم داكن اللون , جرها بمخالبه , شمها , تناولها , هل يمكن أن أروض الدببة من خلال كيس الفواكه المجففة والمكسرات ؟ كررت التجربة , جرها , شمها , تناولها , تبادر إلى ذهني ماذا لو انتهت الكمية التي أصبحت طعامي الأساسي والوحيد الذي يمدني بشيء من الطاقة , هل سيفيدني أن روضته ؟ أيهما أهم للبقاء على الحياة وله الأولوية , صرفت النظر تبقى الطباع هي الطباع مهما حاولت ترويض مفترس سيبقى الدافع نحو الفتك كامناً فيه حتى تحين الفرصة المناسبة.

بعض المحاولات لا تستحق عناء التجربة , حاولت إبعاد يد الديسم داكن اللون حتى أعيد الصخرة , ألقيت له حصى صغيرة , تجاهلها,تحدثت معه يا لبلاهتي هل سيفهمني ! حاولت نخسه برفق لكنني آلمته.

أصدر صوتاً يشبه الشكوى , ثارت لأجله جهيزة وهجمت على الصخرتان رأيت عبر إحدى الشقوق شراً يتطاير من شرر عينها اللامعة وصوت جهوري ملأ المكان , هل خيل إلى أن الصخرتان تهتزان من استياءها أم أنني حركت دافع القتل فيها حتى كاد غضبها أن يحرك الصخرتان ؟

فـي خـطوات رشـيقة عـلى أنـامـل الـقدم , قـفزت خـلف الصخـرة المنبسـطة جـوار بـقعة المـاء , لـو أسـقطت جـهيزة الصخـرتـان سألـقي بـنفسي من فم المغارة حيث الـلا معلوم , فرصـة نـجاة ضئيلة خير من أنيابها القاتلة.

غضبها لم يحرك الصخرتان أصبعاً من مكانها , الغضب هو الغضب لن تغير ثورته من الواقع شيئاً ذلك إن لم تزد الأمر سوءً , حين يئست جهيزة عادت إلى حيث كانت تجلس مع دياسمها.

غضبت منها لأنها دفعتني إلى مكان لا أريد الاقتراب منه , بيني وبين حافة المغارة متر , تجمدت مكاني لم أجرؤ إلى النظر صوب البحر , الشعور بالغثيان والدوار يلازماني كلما نظرت إليه , تسعرت نار الغضب بداخلي وقفزت من فوق الصخرة نحو الصخرتان.

حملت السكين بيد والعصا بالأخرى ننسى المنطق ساعة الغضب , سأعيد صخرة الفجوة إلى مكانها ولو تطلب الأمر قطع يد الديسم , حين وصلت كان الديسم داكن اللون يمد يده وكأنما ينتظر حبة البندق , أشفقت عليه وألقيت ما في يداي , أخذت حبة بندق وألقيتها له اعتذار مني على تلك النخسة التي آلمته فيها جرها , شمها , تناولها.

صوت مخالب الدببة على الحجارة لا يزال في أذني , رائحتها التي تمتزج مع رائحة ملحية وأنفاس الرطوبة لم تغادر أنفي , الطعم الطباشيري بفمي،نظرة جهيزة الحاقدة لم تفارق عيناي أحاول تجاهل ما حصل ويزيد ذلك التجاهل قوة التذكر.

بعض المقارنات مؤلمة , من قصر منيف إلى غار مخيف تجاهلت المقارنة وتوجهت نحو الصخرة جوار بقعة الماء , جلست عليها مع اقتراب المغيب,في انتظار عتمة الليل و (عيطموس) شعور الوحدة بمفرده يقتل فكيف إذا ما تمازج ذلك الشعور مع شعور آخر.

لم يعد أمامي إلا انتظار الموت , الأمل نجم كاذب نراه من بعيد ولا نصل إليه سرعان ما يتلاشى مع ظلمة اليأس , السبيل الوحيد للخروج هو المدخل الشمالي ولكن كيف ؟ البحر هنا .

في تلك القصة المتوارثة التي سمعتها مع (شادن) " البحر من أمامكم والعدو من خلفكم " لو كنت مكان ذلك القائد لوضعت الجنود جسراً بشرياً حتى أعبر ذلك البحر , لا مساحة هنا للبطولة , نفسي , نفسي .

لو كنت أحد أولئك الجند , هل سأقبل أن أكون جزءًا في جسر بشري يعبر منه القائد نحو ضفة الأمان ؟ بالطبع لن أقبل ! ولكن . أليس الجنود فداء للقائد ؟ إذن سأكون مرغمة على القبول .. قبول تضحياتهم .

- عيطموس متى جئت ؟

- قبل قليل .

- تحدث .

- فيم تفكرين ؟

- تعرف فيم أفكر.

- وكيف أعلم ؟

- لا تمارس الآعيبك .. تعرف .

- حسناً ..

- ماذا لو كنت بشرياً يا عيطموس ؟

- ما الذي جاء بهذه الفكرة ؟

- أتعلم ياعيطموس

- ماذا ؟

- لو كنت بشرياً لصنعت منك جسراَ.

- وصولية نرجسية.

- أليست المصلحة هي الأهم ؟

- وأين الإنسانية ؟

- دعك من المثاليات , في الواقع ... (قاطعني)

- في الواقع هناك بشر تجاوزا المثاليات .. فأصبحوا هم مثال بذاتهم.

- حالم.

- لا .. واقعي.

- لا واقع في حديثك .

- صدقيني يا مهرة .

- أصدق ماذا ؟

- أنني واقعي جداً في حديثي عن المثال.

- كيف تريدني أن أصدقك ؟

- ولماذا لا تصدقيني ؟

- لأنك عيطموس.

- تقصدي لأنني خيال ؟

- تعرف ماذا أقصد .

كيف نمت تلك الليلة على الصخرة لا أعرف , بعد استيقاظي بدأت الروتين الذي ألزمت نفسي به , هناك ماء أجاج ينساب على الجدار الجيري ليملأ بقعة الماء بصورة مستمرة من ذلك الماء أتوضأ .

نقل الصخور التي أستطيع حملها أو دحرجتها هي التمارين الرياضية التي كنت أقوم بها , حددت غرف الشقة الصغيرة بتلك الصخور , ليس بالضرورة أن تكون الفضاءات فيها الكثير من العناصر , تيار البساطة أو الأقل إحدى الخيارات المحدودة في المغارة أو تكاد أن تكون الخيار الوحيد.

كأنما أصبح بيني وبين جهيزة هدنة الجارات , أحاول قضاء الوقت ولكن الوقت يكاد أن يقضي عليّ , أن يكون لديك الوقت كله دون شاغل , فراغ ستملئه الأفكار والوساوس والهواجس.

جعلت أفكر بين الخيارين الدكتوراه والمؤسسة , قادني التفكير مجدداً إلى المدخل الشمالي والمدخل الشرقي , مثلما هناك حاجة جسدية "بيولوجية" تدفعنا لإشباعها عبر إشباع الاحتياجات الأساسية هناك حاجة نفسية "سيكولوجية" تحتاج أيضاَ إلى إشباع عبر إشباع الاحتياجات الوجدانية.

هل تلك الحاجة هي الشعور بالوجود وبالحياة وبالآخر ؟ أيعني غياب الآخر غيابي عن الوجود ؟ موجودة أنا سواء بوجوده أم عدم وجوده , ولكن كيف أثبت أنني موجودة ؟ ولمن أثبت وجودي إن لم يكن الآخر الموجود موجوداً ؟!

شعوري بالوجود يكفي ؟ لو لا يعلم بوجودي سوى الواجد الله عز وجل لكفاني ذلك عن سائر الوجود , هل لي ملاذ سواه ؟ في الحقيقة هو الملاذ الوحيد الآمن وما عداه ملاذات مؤقتة أو غير آمنه .

قضيت بقية يومي أشاغل نفسي حيناً بالحديث معها وحينا بالحديث مع عيطموس وأخرى بالحديث مع جهيزة حتى فترة ما بعد الظهر , نظرت إلى الصخرة جوار بقعة الماء , أخرجت الجهاز اللوحي وقفت على الصخرة ربما قد أحصل على إشارة , رطوبة المغارة جعلت سطح الصخرة أملس نوعاً ما أثناء تحركي يمنة ويسرة بحثاً عن إشارة شبكة تعثرت .

يقول (عيطموس) : عادت (مهرة) إلى وطنها بعد أن وجدها مجموعة مغامرين وقد التوى كاحلها داخل المغارة , فور عودتها عادت إلى طاحونة العمل , هناك مشروعان قيد التنفيذ ومشروع ينتظر القرار فيه.

أخبرها قسم المحاسبة أنه من الأفضل تأجيل الالتزام مع أي عميل حتى يناير وذلك لإغلاق السنة المالية الحالية دون عمليات ترحيل أرسلت إلى (ليان) أن تبعث عرض السعر إلى العميل العنيد(عدي).

حين وصلت الموافقة من العميل العنيد, تم دعوته إلى المؤسسة لتقديم عرض تصوري عن المشروع وتوقيع العقد معه , حضر العميل الذي كان يرتدي مثل متوسطي الدخل , أبدى لهم بعض النقاط والملاحظات حول المشروع.

قالت له (ليان) : ليس من اختصاصنا الأعمال الإدارية.

أجابها (عدي) : لتكن من اختصاصكم.

- لا يوجد لدينا من يقوم بهذه الأعمال.

- أوفر لكم الشخص الذي ينجزها.

- عذراً أستاذ (عدي) , مذكور في العقد.

- لم أقرأه بعد.

- في البند الثاني (قدمت له نسخة ورقية)

- لا بأس نغيرها.

- لا يمكن

- اسألي المؤسسة حول النقاط وأعود في يوم آخر للتوقيع

- حسناً

خرج العميل من لدنها وتوجهت بالنقاط والملاحظات إلى (مهرة).

- أغلب هذه النقاط أعمال إضافية.

- هذا ما أدهشني يا(مهرة)

- نضيفها إلى السعر الجديد في العقد.

- ليست من اختصاصنا هذه الأعمال.

- عرض السعر حسب المنفذين من الخارج.

- لك ذلك!

خرجت (ليان) من لدن (مهرة) التي جعلت تفكر أن مشروع العميل (عدي) سيحرك المؤسسة في الربعين الأولى من السنة الجديدة ويغطي بعض الالتزامات في الربع الأول من السنة مع هامش ربح بسيط.

أخرجتها (شادن) من أحلام اليقظة حين حضرت وسألتها :

- غداء؟

- لا أرغب اليوم.

- أحضر لك ؟

- لا .. سأتناول بعد العمل.

- كما تشائين.

- شكراً (شادن)

- عفواَ.

تشعر (مهرة) بتوجس من مشروع العميل (عدي) , جعلت تفكر ماذا لو نزلت عند رأي (شادن) و (ليان) أو حتى (وداد) و (الجازي) من قسمي المحاسبة والدعم الهندسي الذين اتفقوا جميعهم على رأي واحد رفض المشروع , هناك التزامات على المؤسسة تغطيتها , والمشروعان القائمة حالياً بالكاد تغطي الالتزامات للسنة المالية الحالية.

لا تريد الاقتراض فوائد القرض تأكل هامش الربح وبركته , ولا تريد القبول بأي مشروع من أجل تغطية التكاليف الشهرية فقط , الأزمة المالية التي عصفت بالمؤسسة بسبب عدم وجود رأس مال احتياطي لا تتمنى أن تتكرر خرجت منها مثل الخارج من عنق الزجاجة وبعد أن وضعت احتياطي مالي.

بعد حصولها على الاعتماد المهني كانت قد أنهت أقساط التاون هاوس الذي أشترته في المجمع السكني , اقترحت عليها المؤسسة منذ وصولها الخيارات المتاحة للسكن , لم يكن المنزل المصغر ضمن الخيارات.

قامت أثناء وجودها في الشقة المفروشة التي استأجرتها على البحث عن البيوت المتاحة للبيع , وجدت طلبها لدى مجمع سكني , اقترحت على المؤسسة أن تدفع جزءً من القسط الشهري وتدفع المؤسسة المتبقي من القسط.

وصل الخبر إلى والدها والذي وجه مدير فرع المؤسسة حينها بالبدء بالإجراءات وأرسل له الدفعة الأولى , لم تسكن (مهرة) في ذلك المنزل المصغر قط , قامت على تأجيره بمبلغ يعادل قيمة القسط ونصف قسط.

استأجرت استيديو في برج سكني وأبلغت المؤسسة لتتحمل قيمة الإيجار فيما كانت تدفع من إيجار التاون هاوس القسط وتدخر الفائض حتى كونت رأس مال صغير كان دفعة أولى لشراء الإستيديو الذي لا تزال تعيش فيه .

بعد ثلاث مشروعات استطاعت أن تغطي كامل الأقساط , لكن تلك الخطوة لم تكن في صالح المؤسسة , حين تعرضت المؤسسة لخسارتين متتاليتين في المشروعات التي قامت بها مما دفع (مهرة) للحصول على قرض بنكي.

عاد مؤشر الدخل لدى المؤسسة للارتفاع وكان أول ما قامت به هو سداد القرض ثم قامت مع زيادة المشروعات على تكوين رأس مال احتياطي لاتستخدم منه إلا حين تتعرض لخسارة في مشروع أو تخرج منه دون هامش ربح مجزي.

ثلاثة عشر عاماً هي في ميزان الخبرة حياة طفولة مقارنة بأعوام الخبرات التي تقاس بالحياة , حين جمعت (مهرة) سنوات الخبرة للعاملين لديها وجدتها تتجاوز ربع ألفية بمائة وخمسون عاماً , تلك الثلاثمائة وخمسون سنة هي مجموع الخبرات لكن في لغة السوق لا تزال المؤسسة في مرحلة الطفولة.

تعلمت (مهرة) معنى الامتداد التجاري وتناقل الخبرة من جيل إلى جيل , حين تكون مديرة المؤسسة قد ارتوت من خلاصة الأجيال السابقة ليأتي دورها في الإضافة إليها ونقلها للجيل الذي يليه , تجربتها الغضة في عالم التصميم المعماري جعل (مهرة) تقتنع أنها تجربة غير كافية لنقلها للآخرين.

من وجهة نظر (مهرة) المكون السري للاستفادة من الخبرة هي العملية التبادلية بين المهارات ومجال التخصص وهذا ما دفعها للبحث عن مهارة جديدة تتعلمها في مساحة الوقت الذي تجده بين ساعات الأسبوع.

أسبوعها يبدأ من الثالثة مساء يوم السبت , تذهب إلى مكتبها في المؤسسة لترتب جدولها الأسبوعي وترسل أو تستقبل بعض الإيميلات وتراجع بعض التقارير لتخرج في الخامسة أو السادسة مساءً نحو النادي.

في العاشرة إلى العاشرة والنصف تكون قد آوت إلى الفراش لتستيقظ في الخامسة فجراً , تتريض بعد الصلاة نصف ساعة على السير، تتناول فاكهة وتنطلق إلى المؤسسة في السابعة والنصف لتصل إلى مكتبها في الثامنة والنصف عدا الأيام التي تذهب فيها للإطلاع على المشاريع التي تنفذها المؤسسة فإنها تصل لمكتبها في الحادية أو الثانية عشرة.

تُحضر معها عند عودتها فطورها المتأخر أو تتناوله في نفس التوقيت إذا لم تذهب للإشراف على المشاريع وذلك في المطاعم التي تقع بالقرب من برج الأعمال حيث مقر المؤسسة في الدور ما قبل الأخير منه.

في الثانية والنصف إلى الثالثة تغلق ستائر مكتبها لتأخذ على الأريكة قيلولة لا تتجاوز في أطول الحالات عشر دقائق , لتشرب بعد استيقاظها كوب القهوة السوداء الوحيد في يومها وتكمل عملها حتى الخامسة والنصف إلى السادسة.

أحياناً تتناول الغداء بعد فترة القيلولة تلك وأكثر الأحيان تتناول شيئاً من البروتين والكربوهدرات والألياف بعد ذهابها للنادي سواء أكانت مع السائق الذي تدفع له شهرياً أو كانت مع (شادن) و(ليان) بسيارة الأخيرة.

تتفق (شادن) معها في وجهة نظرها بعدم رغبة كلتاهما في القيادة , ترى (مهرة) كما أن تعلم تلك المهارة هي حرية شخصية فإن عدم تعلمها أيضاً حرية شخصية , وكذلك بالنسبة إلى (شادن) التي تعلمت المهارة واستخرجت رخصة لكنها لا ترغب في السياقة وأن تعلمها ذلك للضرورة إن احتاجت إليها.

تعود (مهرة) في الثامنة والنصف إلى التاسعة إلى الإستيديو بالبرج السكني تتناول كوباً من الحليب مع قطعة خبز قبل أن تأوي إلى الفراش بين الساعة التاسعة والنصف إلى العاشرة والنصف , في بعض الليالي تشاهد حلقة من مسلسل وفي بعضها الآخر تراجع إيميلاتها قبل النوم.

الأحد والثلاثاء والخميس يكون اللقاء في منزل أسرة (شادن) أو (ليان) أو في مقهى اعتاد الثلاثة على ارتياده , يوم الأحد يكون اللقاء في منزل أسرة (شادن) حيث يقضين الساعتين بين الأحاديث والشاي في الجناح المخصص لها , يوم الثلاثاء يكون اللقاء لدى (ليان) حيث يقضين الساعتين برفقتها وأختها وخالتيها وطفليها (مراد) و (مرام).

في يوم الخميس إما أن يلتقين في المقهى أو لدى (مهرة) في الأستيديو الذي تعيش فيها , الاختلاف الطفيف فيما بينهن في الطبقة الاجتماعية التي خرجوا منها لم يكن فارقاً ينظرن إليهن أي من الثلاثة.

كانت الفروق بينهن في أمور أخرى لا علاقة للمستوى المعيشي أي دور فيها , تميل (ليان) إلى التعصب نحو تيار معاصر منتشر على الضد من (شادن) التي لا تتبناه بتاتاً فيما تقف (مهرة) في منطقة وسطى بين الاثنتان.

مثل وقوفها كذلك في حال تشجيعها للنادي الرياضي الذي يتبع إدارياً للمدينة التي جاءت منها , حسب حماسة المتواجدة معها يكون حماسها , (شادن) مشجعة من الصميم و(ليان) مشجعة مع الحريم و(مهرة) مشجعة حسب النديم.

قد يكون أن (شادن) اكتسبت تلك الحماسة والتعصب لوجودها في أسرة مكونة من خمس شباب جميعهم مع والديها يشجعون فريق واحد وقد يكون أن تواجد (ليان) مع خالاتها ووالدتها هو ما يبث الحماسة لديها للتشجيع , ذلك تخرص مني لأنني لست عيطموس (شادن) أو (ليان).

يوم الجمعة لا أعلم أين تذهب (مهرة) تخرج في الواحدة ظهراً مع لوحة قماشية جديدة والتي حالما أراها أنفر وأهرب ولا أعود إلا مع عودتها في العاشرة مساءً , لم تخلف يوماً موعدها عدا الأسابيع التي تكون فيها على سفر.

من الاختلافات بين الثلاثة وليست آخرها الحجاب (شادن) ترتدي دوماً النقاب و(ليان) تضع دائماً اللثام أما (مهرة) فهي تميل إلى كشف الوحه , يقابلن الثلاثة التعليقات من الأخريات على طريقة الحجاب بأجوبة لاذعة وساخرة.

بعد أن تم التعديل على عرض السعر , تم إرساله إلى (عدي) لأخذ الموافقة عليه , جاءت الموافقة وتم إعداد العقد للتوقيع بين الطرفان , ماطل (عدي) في التوقيع وكلما سأل عن خطوات التنفيذ تخبره المؤسسة أنه لم يتم توقيع العقد.

- الأستاذ (عدي)

- نعم.

- معك المهندسة مهرة سلطان.

- أهلاً مهرة.

- المهندسة.

- عذراً .. المهندسة مهرة.

- نحن من نعتذر منك أستاذ (عدي)

- لمَ؟!

- لدينا مشروع قادم.

- وماذا عن مشروعي؟

- لم يتم التوقيع من طرفكم ولا إيداع المقدم.

- ألا تكفي كلمتي!

- كلمتك محل تقديرنا .. المشروع القادم لديهم استعداد للتوقيع بعد الظهر.

- متى تم كل هذا ؟

- قسم التسويق لدينا يعمل وفق إستراتيجية.

- وهل من الإستراتيجية تنفير العملاء؟

- لا .. ولكن البحث عن العميل الملتزم.

- وأنا ملتزم بكلمتي.

- يناسبك اليوم أو غداً ؟

- بشأن ؟

- توقيع العقد.

- ليكن غداً.

- التاسعة صباحاً أو العاشرة؟

- لتكن العاشرة.

- وأعتذر منك شخصياً في حال عدم حضورك.

- فيم الاعتذار؟

- سنتواصل مع أصحاب المشروع الآخر.

- ولمَ لا تقومان بالمشروعين سوياً ؟

- نركز طاقاتنا في مشروع واحد للخروج بأعلى جودة.

- جميل .. جميل .

- سيتواصل معكم القسم القانوني لبقية التفاصيل.

- بانتظارهم .

- ونحن بانتظارك غداً.

في الثامنة والنصف كان(عدي) ينتظر في ردهة المؤسسة , في التاسعة إلا ربع كان وصول (مهرة) طلب لقاءها من مديرة مكتبها التي اعتذرت منه لوجود اجتماع لديها حتى التاسعة والنصف.

دخلت مديرة مكتبها لها لإبلاغها , خرجت بعد دقائق وطلبت منه الانتظار ، ذهبت مديرة مكتبها إلى القسم القانوني وعادت تحمل بيدها عقد من نسختين دخلت إلى مكتب (مهرة) ثم خرجت منه وقدمت النسختين موقعة من طرفها.

اغتاظ (عدي) وقع على النسختين , أعطته مديرة المكتب نسخة من العقد ومضى , دخلت (ليان) في وقت لاحق إلى (مهرة) تسألها عن عدة نقاط منها سبب رفضها لقاءه أخبرته أنها رسالة لا مباشرة له تحمل عدة معاني.

أرسلت (مهرة) إيميل في بدايته الترميز "NP" والذي يعني في التداول داخل المؤسسة مشروع جديد , وصل الإيميل إلى (شادن) و(ميشيل) ليقوم كل منهما بدوره في آلية العمل المعتمدة.

بعد ثلاثة أسابيع كانت المخططات الأولية جاهزة لموافقة (ميشيل) و(شادن) تم تحويل تلك المخططات إلى نماذج رقمية ثلاثية الأبعاد بكافة تفاصيلها اللازمة لمشروع مبنى (عدي).

- أتعلمين يا مهرة؟

- ماذا يا شادن؟

- بعد رؤيتي لمشروع (عدي) خطرت لي فكرة.

- ماهي ؟

- قد لا توافقين عليها.

- تذكري مشروع المجمع.

- لا أقصد تعديلات

- ما الأمر شادن؟

- عصفورين.

- في مشروع (عدي) ؟

- في مشروع عدي.

- شراكة كما في مشروع ... (قاطعتها شادن)

- لا لا لا

سكتت (مهرة) وهي تنظر إلى (شادن) أشارت بأصبعها للاستفهام.

- الدكتوراه

- تقصدي ...

- نعم

جالت الفكرة في رأس (مهرة) عصفورين بحجر واحد تنفذ مشروع (عدي) ويكون المشروع ذاته بحث الدكتوراه , فكرة لامعة مبدئياً ولكن سيجعلها في التخصص الدقيق مرتبطة بالمباني التراثية والقديمة .

استشارت عدداً من المتخصصين في المجال , البعض أشار عليها بأهمية التخصص الدقيق والبعض الآخر أشار عليها أن تختار موضوعاً مرتبطاً بالتقنيات الحديثة في فنون العمارة أو الأساليب الجديدة في التصميم الداخلي.

تحمل البكالوريوس في الهندسنة المعمارية والماجستير في التصميم الداخلي هل تختار المباني التراثية للدكتوراه أم التقنيات الحديثة , دخلت إلى المرسم القديم التابع للقسم الفني , في ذلك الجزء من القسم كان يقع المرسم الأول الذي يستخدم لإبداع التصاميم ثم تحول إلى غرفة تجميع الخامات والمواد بعد أن تم توسعة القسم واستحداث موقع آخر للمرسم.

تضع (مهرة) في ذلك المرسم لوحة قماشية على مسند خشبي , وتقوم على قص أو قطع عينات من الخامات أو هدر المواد أو فائض ما تجده في المشروع الذي تعمل على تنفيذه , تجمع كل ذلك في السلة القماشية البغيضة لتستخدمه على تلك اللوحات عبر إلصاق العناصر عليها بطريقة فنية.

حضرت معها مرة واحدة إنتاجها لإحدى تلك الأعمال , في تلك اللوحة الأولى لها كدت أن أتلاشى وأختفي من الوجود , وهذا سبب كاف لان أبغض تلك السلة القماشية التي في مكتبها.

هذه المرة لم تدخل إلى المرسم القديم تحمل لوحة قماشية جديدة لوضعها فيه ، غير تلك اللوحة التي تخرج بها الواحدة ظهراً يوم الجمعة من الاستيديو حيث تسكن ولا أعلم أين تذهب بها , ولم تطلب من عاملة الصحة العامة أن تضع السلة القماشية في المرسم كما تفعل بعد إنتهائها من أي مشروع لتخرج تلك اللوحة الفنية المنفذة بطريقة الكولاج أو الديكوباج ومن ثم تخزنها في نفس المرسم.

رسمت على السبورة البيضاء قسمين في الأول منها كتبت "تراث" وفي الآخر كلمة "تقنية" وبدأت المقارنة بين الإثنان تريد الوصول إلى القرار بأسرع وقت قبل إنتهاء موعد التقديم على برنامج الدكتوراه.

تذكرت الورقة التي علقتها في الكوخ في تلك الرحلة , سألت نفسها ماذا حدث؟ ذهبت للمشي في الغابة , دخلت وكر جهيزة , حوصرت بين صخرتي التعب والشقاء وفم البحر , ثم ماذا حدث ؟؟

حاولت (مهرة) أن تتذكر ماذا حصل لها , تذكر (تالين) الكبيرة و (تالين) الصغيرة على طاولة الإفطار, تجوالها في بلدة "رينا مارينا" المبنية بالصخور الرملية بأزقتها المرصوصة بالحجارة وشوارعها الضيقة التي تكفي بالكاد لسيارة صغيرة أو مركبتان هجينة من مركبات المنتجع .

رجعت إلى مكتبها بعد أن هجم على رأسها صداع عنيف , عللت ذلك الصداع بتجاوز وقت القيلولة , أسدلت الستارة ووضعت رأسها على إحدى وسائد الأريكة لتأخذ غفوة الظهيرة المعتادة.

- عيطموس!

- قبل أن تسألي , سأخبرك.

- بمَ؟

- بما صنعت.

- وماذا صنعت؟

- كتبت بعض أحلامك.

- وما أدراك عن أحلامي؟!

- عن آمالك على وجه الدقة.

- وهل طلبت منك ذلك ؟

- لا تكوني لئيمة , لم تكوني بوعيك.

- ولم تجد إلا أن تكتب عن آمالي؟!

- وهل يملك الخيال إلا أن يرسم الآمال؟



استيقظتُ بعد خمس دقائق في جو بارد رطب , صداع يكاد أن يقسم رأسي لابد أن ذلك الصداع كان من أثر ارتطامي بجدار المغارة , ألم قدمي لا يطاق ربما أن كاحلي قد التوى عندما تعثرت وسقطت من الصخرة , الجهاز اللوحي لا أعرف أين سقط مني لاسيما والظلام قد ملأ أرجاء المغارة.

تحاملت على نفسي حتى صعدت الصخرة التي بجوار بقعة الماء , ظننت أنني غبت عن الوعي خمس دقائق لكنها كانت عدد من الساعات , ملامح السماء توحي على اقتراب الفجر , ربما أنني فقدت الوعي نحو عشر ساعات.

ليلة الأمس لم تكن مقمرة ! لم يكن البدر بهذا الضياء الساطع , يمتد ضياؤه مثل عامود من الفضة على وجه البحر , عن يميني ظلام المغارة وعن يساري ضوء البدر , جعلت أراقب البدر وقد حركت جسدي نحو مدخل المغارة, أنظر للبدر في محاولة لأن أتغاضى النظر إلى البحر.

أغمضت عيناي والتساؤلات تدور في رأسي , أين أنا؟ هل لازلت في المكتب بالمؤسسة وكل ما مررت به كان حلماً ؟ أم أنني لازلت في المغارة وما أراه خيال ؟ أم أنني بالفعل في مستشفى وكل ما عانيت منه كان واقعاً ؟

أرجو أن أكون بالمؤسسة ولا أتمنى أن أكون في المغارة , صوت الطنين المتقطع يخبرني بالحقيقة , فتحت عيناي ببطء في حذر رأيت لون النعناع حاولت النهوض , هل تحول جسدي إلى قطعة موكيت مثبتة بالغراء؟

بعد مدة من الوقت جاءت ممرضة لتبديل محلول الجلوكوز , حين رأتني أستعيد وعيي ذهبت لإخبار الطبيبة , حضرت الطبيبة معها حاولت الحديث معي بلغتها جمعت الأحرف المتناثرة من فمي وأجبتها بعدد اللغات التي أجيدها كانت اللغة المشتركة بيننا اللاتينية.

- أين أنا ؟

- في مستشفى سانت.

- ماذا حدث ؟

- وجدك فريق من الباحثين بإحدى المغارات.

- هل كانوا يبحثوا عني؟

- لا .. فريق بحثي يدرس المغارات

- أشعر بصداع.

- لا بأس .. استريحي الآن.

- لماذا لا يمكنني التحرك ؟

- جسدك يتعافى .. خذي قسطاً من الراحة.

- ماذا حصل لي ؟

- سنجيبك عن كل الأسئلة لاحقاً , ارتاحي الآن.

تحدثت الطبيبة مع الممرضة , يبدو أنها أمرتها بإعطائي دواء ما , ذلك لأنها عادت وحقنت المحلول بإبرة وهي تنظر إليّ تعلو محياها ابتسامة صادقة بصدق نظرات عينيها اللتان كانت تظهر من خلف الكمامة.

بعد إفاقتي بيومين سألتني الممرضة التي تدعى (أرمولينا) عبر مترجم صوتي في هاتفها المحمول إن كنت أريد شيئاً , سألتها عن حقيبتي , أخبرتني أنها لدى أمانات المستشفى وأنني يمكنني طلبها من الطبيبة المشرفة على حالتي والتي حين حضرت كررت عليها ما طلبته من (أرمولينا) فأخبرتني أنها ستوجه الممرضة لإحضارها بعد أن يتم تعقيمها.

لا أعرف لماذا تريد الطبيبة أو المستشفى تعقيم الحقيبة ؟ ربما هو إجراء وقائي تقوم به أو أن هذا الإجراء في بلدهم , في بلدي ندخل الحقائب والمستلزمات دون الحاجة لتعقيمها .. غريب أمر هذا المستشفى !

أحضر لي مشرف الأمانات حقيبة الظهر , كانت تفوح منها رائحة المطهر المزعجة , بعد أن هدأت الرائحة وحضرت الممرضة (أرمولينا) طلبت منها إسنادي للجلوس , أحس أن عضلاتي ضمرت وكأنما لياقتي انحدرت.

فتشت الحقيبة أفتقد أهم ما فيها صورة من جواز السفر وكذلك بعض النقود والبطاقة الائتمانية , هاتفي المحمول والجهاز اللوحي , لا يوجد بها سوى دفتر الملاحظات والمرسام والألوان ومنشفة الوجه , سألت المرضة عبر المترجم الصوتي , هل يمكن طلب مشرف الأمانات ؟

عاد مجدداً سألته عن المفقودات ومن ضمنها عصا الماكيلا والسكين متعدد الاستعمالات , أخبرني أن الأخيرتان يمكنني أخذها عند خروجي من المستشفى وهذا ما أستلمه مع الحقيبة ,قدم لي ورقة جرد مكتوبة بلغتهم أعدتها له وشكرته بلغته من بضع الكلمات التي أجيدها من لغتهم.

يا تُرى ماذا يستحق البكاء أكثر , الفرحة الغامرة بنجاتي من حصار المغارة أم الحزن العميق على فقدان كل ما يثبت وجودي , لم يكن تصارع الشعور واختلافهما حاجزاً أمام اتفاقهما على تحريك دموعي , أشعر برغبة في البكاء رغبة لا أكثر لم تصل حتى إلى مدامعي التي لا الفرح ولا الحزن استطاعوا تحريكها , حتى البكاء .. لا أعرف .. هل كان ضمن قائمة المفقودات ؟

أفرغت همومي على الأوراق , رسمة تلو رسمة كأنما أعود من جديد لتعلم الرسم , كم مضى من الوقت حتى تنحدر مهارة الدقة لدي ؟ لماذا لا يخبرني أحد عم حدث ؟ لماذا هذا السكوت القاتل خلف الابتسامات البراقة؟

في محاولة لإِستعادة مستوى المهارة من خلال رسم العناصر من حولي , بعد أسبوع من التمرين المكثف المستمر , يمكنني القول أن رسمي عاد إلى المستوى المقبول ، خلال ذلك الأسبوع بدأت العافية تدب بجسدي ؛ وكأنما هواياتنا لها قدرة عجيبة تعيد للأرواح سموها وللأبدان نشاطها وللعقول إبداعها وإلى المشاعر إحساسها.

أخبرتني الطبيبة المعالجة أنني كنت فاقدة الوعي عدة أسابيع منذ أن تم إنقاذي من قبل الفريق البحثي ؛ عندما سمعت ذلك منها أحسست أنني داخل عاصفة من المشاعر ، كأنما ألقت بي تلك العاصفة في غابة موحشة لاحياة فيها ، لم أترك لذلك الإحساس فرصة تملكي ، حاولت النجاة منه مثلما حاولت النجاة من المغارة ، لاشئ يهزم الإنسان سوى الإحباط حين رأيت من نفسي إقبالاً على الحياة طلبت من (أرمولينا) أن تحاول توفير جهاز متصل بالانترنت.

أحضرت لي (أرمولينا) جهازها المحمول اللابتوب أدخلت حسابي في إحدى المواقع واتصلت مرئياً عبر موقع "سايب" بأول من خطرت على ذهني , ليس غيرها ستخبرني ماذا يحدث في العالم.

- مهرة ؟!

- نعم مهرة ياشادن.

- أين أختفيتي؟

- قصة طويلة , أخبريني ما ... (قاطعتني)

- بل أنت أخبريني , أين أختفيتي؟

- سيطول سردها .. سأخبرك لاحقاً.

- المهم أنك بخير.

- أرجو ذلك .. أخبريني أنت؟

- عم سلطان ذهب للدولة التي أنت بها , بحث عنك ولم يجدك , ذهب مع مندوب القنصلية إلى المنتجع , وجدوا في الكوخ جوازك وملابسك وأعادها معه بعد أن يأس من إيجادك.

- أووووهـ

- أخبروه الجميع أنك ربما تعرضت للاختطاف.

- اختطاف ! .. لا , كنت فاقدة للوعي .

- ما الذي حصل ؟

دار الحديث بيني وبين (شادن) قرابة الثلاثة ساعات , لولا أن مؤشر البطارية بدأ بالوميض ربما أكملت الحديث معها لثلاث ساعات أخرى , صُدمت بالخبر الذي نقلته لي في تلك المكالمة المرئية ، هل يعقل أنني غبت عن العالم كل هذه المدة !!

قمتُ من فراشي وجلستُ على الكرسي المجاور للباب. أخذتُ معي دفترَ الملاحظات وعدتُ إلى الكتابة التي طلبها مني (عيطموس) منذ أن أفقتُ لم أره؛ لم يحضر؛ بل لم يزرني، ولم يرسل حتى باقةَ من زهرةِ الغريب التي أعشقها.

هل اختفى (عيطموس) مع اصطدام رأسي بالجدار الجيرِي , لا أعرف قد يكون من المناسب الحديث عنه الآن وكيف بدأت علاقتي به , بدأت علاقتنا في الطفولة المتأخرة , رأيته للمرة الأولى على جدار غرفتي , كان يجلس مثلما أجلس , من ورائي كان هناك ضوء خافت ينبعث من "الأباجورة" رأيت طيفه الأسود كأنما هو ظلي المنعكس على الجدار , بدأت الحديث معه وأجابني.

من تلك اللحظة لم يفارقني لحظة إلا في بعض الأحيان , حين أكون برفقة لوحاتي أو صديقاتي أو يحدث بيننا جدال وخصام ولا أعيره الاهتمام , بعض الأفكار الشريرة والخطط الشيطانية تكون بإيحاء منه , لا يعني ذلك أن كل الأفكار والخطط التي يخبرني بها سيئة , بعضها في ثناياها أفكار نبيلة جميلة.

كتبت عنه ولم يحضر , حسناً يا(عيطموس) حتى أنت اتفقت مع العالم على أن تمارس السكوت القاتل أم أنها مزحة الجليد ؟ تعلم أيها الخيال أن الصمت العقابي لن يدفعني لأن أستجدي حضورك , أتعلم شيئاً آخر يا(عيطموس) سأرسم الغرفة التي أنا بها الآن حتى أتأكد أنك لن تجرؤ على الحضور !



هكذا هو منظر غرفة المستشفى ذات لون النعناع , عُدت لأفكر فيما أخبرتني به (شادن) خمسة أشهر كنت غائبة عن الوعي , سجلت في المستشفى بأسم "حالة مجهولة " كما أخبرتني الممرضة والتي قالت لي أنهم وضعوني في غيبوبة اصطناعية نظراً لحالتي الصحية , لست أفهم ما التبرير الطبي المنطقي لاتخاذ هذا القرار , وربما أن هذا سبب عدم إيجادي من قبل القنصلية التي تواصلت مع كافة المرافق الطبية ولم يجدوا لي أثر كما قالت لي (شادن) هل أهملت هذه المستشفى إبلاغهم عني كما أهملت الحفاظ على مقتنياتي الشخصية ؟ أم أن ما أصاب العالم أذهل الكل عن البعض .

الأغرب من ذلك هذا الوباء الذي أخبرتني به (شادن) والذي حين عادت (أرمولينا) لتفحصي وأخذ جهازها المحمول مع انتهاء نوبتها سألتها عنه وأخبرتني أنه بالفعل هناك وباء منتشر في العالم ، حول الكرة الأرضية إلى غرفة طوارئ ولا تزال الأبحاث جارية لاكتشاف علاج أو لقاح له.

بعد الأخبار والمستجدات التي نقلتها لي (شادن) أصبح لدي عدد من الترتيبات الجديدة , أولها الخروج من المستشفى والعودة إلى الوطن , اتفقت مع (شادن) أن موعد الاتصال القادم سيكون بعد يومين ريثما أعرف تفاصيل أكثر عن حالتي الصحية وما سبب الغيبوبة التي كنت بها المدة الماضية .

أخبرتني الطبيبة المعالجة أن إجراء أشعة للدماغ ولكاحلي هما ما يحددان الوضع الصحي , بعد يوم من زيارتها أخذتني (أرمولينا) بالكرسي المتحرك لإجراء الأشعة , عادت الطبيبة بعد خروج صور الأشعة , الوضع مطمئن ويمكنني الخروج بعد إنهاء جلسات العلاج الفسيولوجي وسداد تكاليف الرعاية الصحية التي تلقيتها على مدى الأشهر الماضية.

قرار الاطباء استخدام التخدير العميق طويل المدى او الغيبوبة الاصطناعية كما هو متعارف عليه جاء بسبب ذلك الوباء الذي منع العاملين بالمجال الصحي من اجراء اي تدخلات جراحية والتقليل من الاتصال بين المرضى والعاملين ؛ هل يبرر ذلك اتخاذهم القرار دون اخذ موافقتي ؟ لا أظن ، غيابي عن الوعي الطبيعي يبرر ذلك ؛ ربما .

طلبت من (أرمولينا) أن ترافقني إلى قسم المحاسبة بالمستشفى لمعرفة تكاليف العلاج وذلك حين أحضرت لي جهازها المحمول لأجري الاتصال عبر الانترنت مع (شادن) , بعد ساعات قمت بالاتصال على (شادن) حسب التوقيت المتفق عليه.

تفاجأت وقت الاتصال بتحول الإطارين اللذان يظهران وقت الاتصال المرئي إلى ستة إطارات للاتصال , لقد رتبت (شادن) مع الجميع والداي , ماهر , ليان , كانت تلك مفاجئة جميلة كادت فيها معنوياتي أن تخترق سقف الغرفة.

أخبرت الجميع أنني سأعود قريباً , بعد نصف ساعة من الاتصال بقي نصف المتواجدين , أخبرت (شادن) و (ليان) عن تكلفة خروجي وبعثت لـ (شادن) في المحادثة الخاصة رقم حساب (أرموليا) كان إجمالي المبلغ خمس خانات بإحدى عملات البورصة العالمية , قامت (شادن) على تحويل المبلغ ومبلغ إضافي إلى حساب (أرموليا) الذي طلبته منها لإجراء التحويل إلى حسابها.

بعد نصف يوم تقريباً ومع نوبة (أرموليا) جاءت ومعها فاتورة المستشفى مسددة ومبلغ إضافي , حين قارنت بين المبلغ الذي أخبرني موظف المحاسبة والمبلغ الذي سددته (أرموليا) وجدت الفرق 15% , قامت (أرموليا) على تخفيض المبلغ من خلال إضافة علاجي إلى ملف إحدى قريباتها.

حسب نظام المستشفى هناك تخفيض 25% لعلاج الموظف و 15% لقرابته من الدرجة الأولى , من قال أن الخلق النبيل أو المبادرات السامية لا تصدر إلا من فئة محددة أو ديانة أو مذهب محدد ؟ مع ذلك لا أصدر حكماً عاماً ، لا أعرف قد يكون خلف ذلك التصرف ذئب يرتدي صوف الحمل.

لازلت في حاجة إلى العلاج الفسيولوجي حتى تعود لياقة الحركة بصورة طبيعية , كما أخبرتني المعالجة في قسم العلاج الطبيعي كلما كانت اللياقة البدنية قبل الإصابة في درجات أعلى على مستوى القدرة الرياضية كانت العودة إلى الحركة الطبيعة بعد العلاج أسرع والضد بالضد , في الآونة الأخيرة قبل سفري أهملت أياماً عدة في النادي بسبب ضغط المشروعات ومع ذلك أرجو أن تعود لياقتي على الأقل كما كانت سابقاً قبل الغيبوبة , منذ إفاقتي قبل شهر والتحسن التدريجي الحالي مستمر في الصعود , هل للإرادة والمعنويات دور في ذلك ؟ لاشك.

بعد أن أنهيت مرحلة التأهيل البدني التي أدرجت ضمن تكاليف العلاج , حانت ساعة خروجي من المستشفى , أشارت على (أرمولينا) أن تقوم وخطيبها على إيصالي إلى حيت أريد , أخبرتها عن المدينة التي أريد الوصول إليها , لم تكترث للمسافة وأعادت علي عرض إيصالها لي , وافقت وطلبت منها جهازها المحمول حتى أجري اتصالا مرئياً في طريقنا نحو المدينة الرئيسة.

قبل أن ننطلق في رحلة السفر التي سوف تستغرق عدة ساعات توقفنا عند إحدى المتاجر الشاملة والتي أحضرت لي منها (أرمولينا) ملابس وحذاء وبعض المستلزمات دون طلب مني , أخذت طقمين من الملابس وحذاء إضافي وبعض العصائر والفواكه المجففة والمسليات وبطاقة بريدية ، عند كاشير المحاسبة دار في خلدي أن اختيارات الضرورة تدفعنا لأن نتغاضى عن اختيارات الرفاهية.

المدينة التي بها مستشفى سانت تبعد عن المنتجع مسافة ساعة وعن المدينة الرئيسة قرابة الثلاث ونصف إلى أربع ساعات , بلغة حساب المثلثات التي أهواها إذا كان المنتجع في زاوية القائم فإن طرف الضلع الأول يصل إلى مستشفى سانت وطرف الضلع الثاني يصل إلى المدينة الرئيسة التي بها القنصلية فيما الوتر هو الطريق من المدينة التي بها المستشفى إلى المدينة الرئيسة والتي يقع بها أكبر المطارات.

أعطت لي (أرمولينا) بطاقة ائتمانية لحساب مصرفي قامت على فتحه باسمها وأخبرتني أنني حالما أصل إلى بلدي أتصل عليها وأخبرها بوصولي حتى تطمئن على عودتي وتقوم على إغلاق الحساب البنكي.

كيف أجازيها على كل تلك الخدمات ؟ فكرتي أن أضع لها مبلغاً من المال في البطاقة البريدية غير مجدية , يمكنها وضعه في الحساب الذي أعارتني إياه لابد من طريقة ما لرد تلك الأيادي البيضاء لها.

أعدت لها الجهاز المحمول بعد أن كتبت لها بعض كلمات الامتنان على مواقفها , عند نزولي من السيارة مددت لها رسالة الامتنان التي كتبتها في البطاقة البريدية واعتذرت منها أنني دونتها باللاتينية , أجابتني عبر المترجم الصوتي في هاتفها المحمول أن المشاعر الجياشة أسرع في الوصول من الكلمات المعبرة عنها.

تودعنا عن بعد ونحن بالقرب من بعضنا البعض لذلك الإجراء الوقائي الذي يتبعه الجميع , عند باب القنصلية كانت آخر مرة شاهدت فيها (أرمولينا) مضت من حياتي بهدوء مثلما دخلت بهدوء , سقطت من قائمة المفقودات على وجنتي قطرة ساخنة , علمت أن فيض الإحساس حين يصل إلى ذروته لا تترجم معانيه سوى دمعة حارقة أو ابتسامة صادقة.

عند مدخل القنصلية أخبرت حراس الأمن بمن أكون, طلبت مني الموظفة أي أوراق تثبت صحة إدعائي , قدمت لها الأوراق الطبية التي أحملها معي من ضمنها نتائج التحاليل وفاتورة التكاليف , نظرت إليّ الموظفة وطلبت شخصاً يعلوها رتبة الذي أمرني بمرافقته , أدخلني إلى مكتب متوسط المساحة , بعد أن جلس خلف مكتبه وجلست أمامه سألني عما أريد.

أعدت له ما أخبرت به موظفة الأمن , طلب مني تفتيش حقيبة الظهر التي معي , بعد أن قام على تفتيشها , أخرج منها البطاقة الائتمانية , نظر إليها وسألني بشك

- هل أنت (أرمولينا) أم (ماغدا) ؟!

- لا هذه ولا تلك .. أنا (مهرة سلطان)

- الأوراق الطبية بأسم (ماغدا) ... (قاطعته)

- سأخبرك بما في الأمر.

أخبرته بكافة التفاصيل المتعلقة بالأوراق الطبية والبطاقة الائتمانية بعد أن انتهيت قال لي

- قصة رائعة .. يبدوا لي أنك محترفة .

- محترفة ! في ماذا ؟

- محترفة في انتحال الشخصيات والنصب والاحتيال.

- أنظر إلى ملامحي , لغتي .

- المخادعون دوماً يرتدون أقنعة البراءة .

لم أستطع أن أتمالك نفسي أكثر , أنهرت باكية , نظر إلي باستخفاف وهو يقول :

- تمثيل مذهل !

- أرجوك لابد من وجود طريقة .

- تفضلي معي .

مضيت معه نحو بوابة القنصلية أخبرني أنني أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن أخرج أو سوف يستدعي السلطات المحلية , كنت وإياه مثل المتقابلين وبيننا الرقم (9) كلا الشخصين هم على صواب من وجهة نظرهم , الاختلاف بينهما أن أحدهما يراه الرقم (6) والآخر يراه الرقم (9) وضعت نفسي مكانه حتى يحين الوقت الذي أضعه في مكاني .

خرجت وتوجهت بالأجرة نحو مجمع أذكر أنني زرته , اشتريت هاتفاً محمولاً وشريحة بيانات , أثناء تناولي الإفطار المتأخر حجزت عبر الانترنت وتوجهت نحو الفندق الذي سكنت فيه أول مرة , كانت الإجراءات بسيطة.

غدا يوافق الرابع والعشرون من أبريل عام 2020م اليوم الأول من رمضان تواصلت مع (شادن) أخبرتها بالمستجدات التي حصلت معي , أخبرتني أنها ستعمل وسعها لإيجاد مخرج قانوني وآمن , أخبرتني كذلك عن حالة الحظر العام المفروضة وتعجبت كيف أن الدولة التي أنا بها لم تفرض حظر تجوال.

حجزت عبر الانترنت يوماً في المنتجع في نفس الكوخ , معلوماتي الأساسية موجودة في الموقع لكل من الفندق والمنتجع , قد أجد أي بارقة أمل , وصلت اليوم التالي في فترة الظهيرة مع مجموعة سياحية , لم تكن موظفة الاستقبال نفسها ، أخذت مكاني بالمركبة الهجينة ليوصلني السائق إلى الكوخ الذي سبق لي المكوث فيه.

حين دخلت الكوخ وددت لو رأيت (عيطموس) أو أحد من عائلتي أو صديقاتي المقربات , لكن تبددت تلك الأماني مثل عطر لا ندرك منه إلا رائحته , ألقيت بنفسي على الأريكة المقابلة للمطبخ واستغرقت في إغفاءة عميقة.

اكتفى الفندق بالإطلاع على جواز السفر بينما أخذ المنتجع نسخة منه , فتحت عيناي وهرولت صعوداً إلى الدولاب بالأعلى ربما لا يزال جوازي موجوداً فيه كان فارغاً يملأه الهواء مثلما كان قلبي في تلك الساعة.

جلست على السرير لمحت في الفراغ بين منضدة السرير وظهره قطعة قماش , النظافة والترتيب في كثير من الفنادق والمنتجعات مجرد إجراء روتيني شكلي , أبعدت المنضدة وجذبت قطعة القماش ليخرج لي المنديل الحريري المرجاني اللون , ربما أنه سقط عن شعري قبل استغراقي في النوم أو وضعته أعلى حافة السرير حتى آخذه اليوم التالي , تذكرت أنني حين عدت من لدن (تالين) الكبيرة وأبنها وأحفادها لم أجده وأنا أرتب حقيبة الظهر.

نفضته , شممته , فاغت رائحتي منه ممزوجة برائحة الخشب والغبار,عصبت رأسي به التي وضعتها على الوسادة حتى أكمل إغفائي , يا لبلاهتي ما الذي أعادني إلى الكوخ , هل هو البحث عن الانتماء ولو في كوخ معزول بالغابات؟

شعور قاتل يحيط بي من كل الجهات , أود لو كان كل ما مررت به مجرد كابوس ينتهي باستيقاظي , ماذا يثبت وجودي للآخرين الذين لا يؤمنون إلا بالوثائق ؟ بلا وثيقة لا وجود للإنسان , وماذا عن أولئك الذين يعيشون بلا وثائق رسمية أيلغي ذلك وجودهم من الوجود ؟ أم أنهم موجودون على هامش الوجود كما هم مهمشون في الحياة , لست من أولئك الضائعين بين فوضى الحياة ونظام الوجود لكنني موجودة في منطقة ضائعة بين الوجود والحياة.

في الخامسة مساءً هاتفت المنتجع وطلبت السيارة الهجينة التي أوصلتني إلى بلدة "رينا مارينا" حيث تسكن (تالين) الكبيرة و(تالين) الصغيرة مع والدها وأخيها , وصلت إلى الموقع الذي أريده , كان باب المتجر مغلقاً , صعدت درجات السلم وطرقت باب المنزل .

خرج لي هلالين من قهوة سوداء يعلوان هضبة قاحلة من عظام الوجنتين نظرت إلى تلك العنين الغائرتين سألت صاحبتها :

- (تالين) ؟!

- من ؟

وضعت حقيبة الظهر , أخرجت دفتر الملاحظات , قلبت بين صفحاته على عجالة , وجهت الرسمتان نحوها , ألقت (تالين) بنفسها بين ذراعي تجهش بالبكاء لم يعد بكائي في قائمة المفقودات , انحدرت تلك الدموع حتى تلاقت مع شفتاي البيضاء الجافة التي كانت تبوح بصمت عن ما بداخلي من شعور مؤلم لايعبر عنه سوى فرشاة .

يقول (عيطموس) : خرجت (مهرة) من اتصالاتها مع (شادن) بعدة تصورات عن وضع المؤسسة , تم إيقاف العمل على المشروعين حتى انتهاء الأزمة ، تأجيل جميع الارتباطات والالتزامات , تأجيل أو إيقاف جميع التوريدات والعقود الخارجية , تقليص عدد الموظفين وتقليل الرواتب , هناك من نقل خدماته إلى مؤسسات أخرى وهناك من أخذ إجازة طويلة حتى تنجلي الغمامة.

أصبحت المؤسسة مثل أنبوب معجون فارغ , تلك الحياة التي كانت تتلألأ في أرجاء المؤسسة أمست ظلاماً دامساً يملأ الزوايا , بادرت (شادن) و(ليان) على تحمل ضعف المؤسسة وأعطت كل واحدة منهما أكثر مما سبق.

(شادن) التي كانت لا تقوم بأعمال الغير أو الأعمال الصغيرة وضعت على كتفها إدارة قسم الموارد البشرية والمحاسبة والمشاريع و(ليان) التي كانت تشتكي دوماً من ضغوط قسم التسويق حولت كل المحتوى التسويقي لديها ومالديها من بيانات إلى منصة تدريب وتطوير وتسويق.

بدأت (ليان) في تقديم دروس في التخصصات التي تجيدها وعملت على التسويق لصالح الآخرين في مقابل وضع أسم المؤسسة ودعمها مادياً , أعدت هوية تسويقية جديدة للمؤسسة وسخرت كل طاقة العاملين معها لأقصى درجة .

الخذلان أصعب ما يكون حين يأتي ممن وضعنا الثقة فيهم , تخلى عن المؤسسة كثيرون , ولم يقف لحمل المؤسسة إلا بضعة عشرة فرداً من الرجال والنساء لا يمثلون سوى ربع العدد الأساسي لموظفي المؤسسة.

في الاجتماع الذي حضره ستة عشرة شخصاً جعلت (مهرة) تسأل كل واحد وإن كانت تعرف من هم عن القسم الذي تحمل مسئوليته أو الأعمال التي كلف بها وأشارت على الجميع أن يبدأ كل شخص حسب الترتيب الهجائي.

فتح المهندس (أحمد) كاميرته أولاً، عرف عن نفسه بصوتٍ هادئٍ يحمل ثقل الخبرة، مسؤول التخطيط، أكبرهم سناً وأقدمهم معرفة، نُقلت خدماته مع انتقال المؤسسة باسم مهرة. تتابعت النوافذ: ظهرت (رجاء) بابتسامةٍ سريعة، يطلق عليها البعض لقب جوكر المؤسسة، كانت تشرف على الخدمات اللوجستية. انضم المهندس (زياد) الرجل الذي حمل القسم زمناً قبل أن يمرر له راية العمل فيه مديره (ميشيل) الذي رشحه قبل ثلاث سنوات .

ظهرت (ساندي) في نافذةٍ أخرى، تلك التي وظفها مدير (زياد) السابق ورشحها لقسم التقنية ، أثبتت جدارتها في قسم الـ IT كما تفضل أن تطلق عليه . جاء (سعود) بعد ذلك، نُوّه بأنه كان يعمل تحت إدارة (فهد) قبل إعادة الهيكلة، ويتفق معه في كثير من النقاط، ثم ظهرت (سلمى) بهدوئها المعتاد، صمتها على الشاشة أبلغ من كثيرٍ من الكلمات المحسوبة التي تنطق بها.

تحدثت (شادن) عن مهام قسمها عبر مشاركة شاشة تعرض نقاط العمل، ثم عرف (عبد اللطيف) عن نفسه؛ الموظفون يعتبرونه استثناء بين مدراء الموارد البشرية لأسلوبه وطريقته المميزة التي تدفع الجميع لاحترام ساعات العمل. بعده قدم (عمار) نفسه، مستلمًا مكان (رويدا) التي استقالت مع زوجها (ميشيل) مع بداية الوباء. أشار (فهد) إلى قدرات (سعود) وإنجازاته التي تؤهله لاستلام العقود والتوريدات قبل أن تتحول الهيكلة إلى قسمين منفصلين حسب خطة (شادن)

عرف (لافي) عن ذاته موضحاً كيف كان يقسم يومه قبل الوباء بين الجهات العدلية صباحاً والعمل بالمؤسسة مساءً لإنهاء الأعمال القانونية وصياغة العقود. تحدثت (ليان) عن بعض الأعمال التي أدرجتها للقسم، وأرسلت روابط بعض الأعمال المرئية عبر المحادثة. حين قدمت (مهرة) نفسها، كانت كلماتها صادمة للحضور وأثارت تساؤلاتٍ بين الحضور. تلتها (ميعاد) التي انفصلت عملياً وعاطفياً عن قسم الاتصالات واستلمت قسم خدمة العملاء بعد انفصالها عن رئيسها السابق (نضال)

ثم عرف (نضال) عن نفسه بالاسم ، بعيداً عن اللقب التي تهمس بها الجدران وهو الخاطب السائب ،. وبعده ظهرت المهندسة (الجازي) بروحٍ مرحةٍ وخفة ظلٍ عبر الكاميرا؛ لا تهاب أن تطلب أو تأمر حين يتطلب الأمر تأمين احتياجات قسم الدعم الهندسي، حتى وأن كان الطلب من (سلطان) الذي يعتبرها هي و(شادن) و (ليان) مثل ابنته (مهرة).

أخيراً قدمت (وداد) نفسها، التي كانت تعمل مع (سلمى) في نفس القسم، قبل أن تُعلن (شادن) في عرض ذلك الاجتماع عن فصل القسم إلى جزئين المحاسبة والمالية. سألت (ساندي) من المُرشحين الذين وضعت أسمائهم (مهرة) لمنصب المدير التنفيذي وكأنما تلمح من بعيد أو تود أن يكون أسمها ضمنهم , لم يكن يعلم عن الأسماء المرشحة سوى ثلاثة أشخاص (مهرة) و (شادن) و (أحمد) قامت (شادن) بطريقة لا مباشرة قبل منع العمل الحضوري على الحديث مع جميع ممن حضر الاجتماع بأساليب وطرق متنوعة .

استطاعت خلال الأسابيع الماضية أن تخرج بطريقة مباشرة ولا مباشرة بعدد من الأسماء المشتركة , ثلاثة منها يكاد يتفق الجميع عليها , بالنسبة للمهندس (أحمد) أو العم (أحمد) كما يطلق عليه البعض في المؤسسة فإن سبب معرفته بالأسماء يعود إلى معرفته الوثيقة بأسلوب تفكير (شادن) و(مهرة).

عمل المهندس (أحمد) مدة ثلاثين سنة لدى مؤسسة والدها في عدة أقسام قبل أن ينقل (سلطان) خدماته إلى (مهرة) لم تخلو تلك العقود من الزمن من زيارات (مهرة) إلى القسم الهندسي في المؤسسة حيث تجد مساحة الإبداع وذلك حين تأتي لزيارة والدها في مقر عمله.

كانت الزيارات تلك التي أقترحها (سلطان) على (مهرة) في صغرها يهدف منها إلى زراعة الفكر التجاري في عقلها وغرس الميول الهندسي لديها حيث كان موظفي القسم يزودونها بأدوات الرسم لتجلس على موكيت القسم, أمامها المخططات الملغاة ترسم وتلون فيها , كانت تعود إلى العم (احمد) تسأله عن رسمها وكان يجيبها ويرشدها في الأسس الفنية للرسم.

في السنوات الأخيرة قبل انتقاله إلى مؤسسة (مهرة) كان يعمل (أحمد) في إدارة التخطيط وبناء الإستراتيجيات , ساعدت تلك الإدارة (شادن) و(مهرة) أثناء عملهن في فرع المؤسسة وبعد استقلال المؤسسة على تنظيم هيكل المؤسسة وآليات عملها.

الازدواجية بين ملكية المؤسسة وإدارتها تنفيذياً لدى (مهرة) التي كانت من مهامها الإشراف على الأعمال الهندسية جعل آلية العمل وتنفيذ القرارات أسهل أدركت (مهرة) أن آلية العمل إنما هي مزيج متناغم بين أهداف المؤسسة وطرق تحقيقها وفق إمكانيات وقدرات العاملين فيها.

الأسماء الستة المرشحة لمنصب المدير التنفيذي هم (أحمد) , (زياد) , (فهد) (رجاء) , (سلمى) , (شادن) تلك هي الأسماء التي وضعتها (مهرة) أمام الجميع في الاجتماع بعد أن أخبرتهم أنها ستتفرغ للعمل في قسم الدعم الهندسي.

التساؤلات الهامسة التي تسللت عبر نوافذ الاتصال، كانت مثل نسيم رقيق يحيط بأفكار الحضور : الناس بطبعهم يسعون للصعود في السلم الوظيفي ويبحثون عن فرص أكبر وآفاق أوسع، أما العودة إلى مهام أبسط أو النزول في المراتب فبدت لهم أمراً غريباً لا يُفسَّر.

قطع صوت (شادن) المعروف حفيف تلك الأصوات الهامسة وذلك فور طرح الأسماء ؛ اعتذرت (شادن) ولحقتها بالإعتذار (سلمى) عن الترشح للمنصب بالنسبة إلى (شادن) ترى أن قدراتها وامكانياتها في مجال تخصصها المعماري وتتفق معها في تلك النظرة (سلمى) التي تفضل الأعمال المرتبطة بمجالها المالي.

أعادت (ساندي) التلميح عن وضع أسمها قبل أن تطلب ذلك مباشرة في الاجتماع وضعت (مهرة) أسمها ضمن المرشحين حتى يتم التصويت , تدخل (لافي) وأخبر الجميع أنه بناءً على ما ورد في مواد نظام وزارة شؤون العمل تلتزم الشركة أو المؤسسة على تعين المواطنين فقط في المناصب التنفيذية.

انهارت طموحات (ساندي) لتولي ذلك المنصب وذلك لعدم توفر الشروط قانونياً لديها وشمل عدم توفر الشروط كلا من (أحمد) و (رجاء) , أقترح غالب الحضور على مهرة أن تضع (شادن) ضمن قوائم المرشحين.

لكن (مهرة) لم تفعل ذلك وعزت عدم الترشيح لرفض (شادن) المسبق للمنصب الذي كان شاغراً وبانتظار أن يشغله (زياد) أو (فهد) طلبت (مهرة) أن يختار الجميع بين الأسمين وجاءت النتيجة بالتعادل وبقي صوت واحد لترجيح كفة أحدهما على الآخر أما (فهد) أو (زياد).

رشحت (مهرة) وجاء تصويتها لصالح (فهد) وفي نفس الوقت وضعت (زياد) نائباً له , فيما سلمت العقود إلى (سعود) وألقت الخبر الذي فاجأ الجميع بمن فيهم (أحمد) و(شادن) و(ليان) والبقية . أخبرت الجميع أنها ستحول المؤسسة إلى شركة ذات مسئولية محدودة وستضع سهماً لكل الحاضرين بالاجتماع بمبلغ من ستة خانات وسيكون سداد قيمة الأسهم من صافي دخل المساهمين حتى يتم استعادة قيمة الأسهم التي سوف تدعمهم بها .

ثمان من أصل ستة عشر من الحضور أخبروا (مهرة) أن بإمكانهم توفير المبلغ والثمانية الآخرون قبلوا بالحصول على دين مؤجل من (مهرة) لقاء السهم وبعضهم أشار إلى أن الدين من (مهرة) أفضل مئات المرات من قرض بنكي لا يخلوا من فوائد ومقاصة منتظمة مهما كانت الظروف.

وجهت (لافي) و(سلمى) و(فهد) لترتيب الأمور القانونية والمالية والإدارية وحفزت الجميع أن الاجتماع القادم سيكون أول اجتماعات الشركة , قبل أن تنهي الاجتماع أخبرت الجميع أن أول رئيس للشركة هي (شادن) وطلبت من (لافي) إكمال اللازم لهذا التعين الذي ألجم (شادن) عن الحديث.

في الاتصال المرئي الذي تلا الاجتماع بيومين سألتها (شادن)

- لماذا يا (مهرة) ؟

- أنت خير من يقوم بذلك.

- لكنك تعلمين رأيي.

- أعرفه جيداً وأعرفك جيداً.

- لا أظن ذلك.

جمعت (مهرة) شعرها لمؤخرة رأسها وهي تسألها

- لمَ تقولين ذلك ؟

- لأنك نسيت عهد الصداقة.

- لا علاقة للعهد بالعمل .. باقية على العهد .

- ماذا أفعل الآن؟

- فيم ؟

- قد يظن الزملاء والزميلات أنني استغللت صداقتنا !

- ليظن من يظن ما يظن .. أتظنين أن ظنه يضنينا ؟

- كيف أبرر لهم أن لا يد لي بالموضوع.

- لا حاجة للتبرير.

- ولكن .. (قاطعتها مهرة)

- (شادن) , (شادن) أسمعيني .

- أسمعك .

- لو عينت رئيساً من أقصى الدنيا وبإجماع الجميع لن نسلم من النقد.

- صحيح.

- إذن لا داعي للقلق.

- أخاف أن أحُارب كما حوربت في القسم.

- سأساندك كما ساندتك بالقسم.

- كيف ؟

- دعي يوم غداً لأوانه .. أخبريني

- عن ؟!

- (فوز الرضا).

- تواصلت معها بخير هي وأبناءها.

- الحمد لله.

- هل يمكن أن أسالك عن علاقتك بها ؟

- ماذا حدث مع والدة (ليان) لم تخبريني ؟

- حسناً .. بخير هي الآن.

تواصلت (مهرة) مع (ليان) بعد اتصالها مع (شادن) حتى تطمئن عن حالة والدتها الصحية بعد إصابتها بالوباء , أخبرتها (ليان) أنها بدأت في التماثل للشفاء بعد فترة العزل , ومع ذلك انتقلت العدوى إلى خالتها.

التصور عن الشركة كان موجوداً لدى (مهرة) منذ اليوم الأول لاستقلال المؤسسة , لم تخاطر رؤوس الأموال التي تعرفها في أن تشاركها في ذلك الهدف , بالنسبة لهم خبراتها وملامح السوق لا يبشران ولا يؤهلان للشراكة.

بعد انتشار أسمها وحصولها على الجائزة وقيامها قبل ذلك بعدة مشاريع ناجحة بدأت عروض الشراكة تنهال عليها بأساليب وطرق مختلفة , كثيرون يرغبون بقطعة من الكعكة بعد أن نضجت , قبل نضوجها لم يجازف أحد لأجلها.

اختيارها للعمل في قسم الدعم الفني وتحت إشراف موظفة كانت هي رئيستها ذات يوم , هي أولى الخطوات التي وضعتها (مهرة) للخطة التي تريد تنفيذها ولم تكن ترغب أن تخبر أحد عن تلك الخطة المدروسة.

أوصلت الخبر للجميع أنها قامت بذلك لأجل تمكنها من البدء في خطى الدكتوراه , في الواقع لم تكن حجة دراسة الدكتوراه سوى عذر للوصول إلى شيء محدد وقد تتخلى عن إكمال الدراسة إن وصلت إليه.

القدرة على التعلم المستمر والتخطيط الجيد والمرونة في التعديل على الخطط والحزم والدقة في التنفيذ كل تلك المهارات اكتسبتها (مهرة) عبر السنين والعيش والاحتكاك مع الأشخاص الذين ساهموا في نحت تلك المهارات لديها.

أثرى تلك المهارات وصقلها تجارب السفر و رحلات العمل لحضور معرض أو فعالية متعلقة بالهندسة المعمارية أو البناء أو التصميم الداخلي أو غيرهم مما له علاقة بتخصصها مثل معارض الأثاث والمفروشات إضافة إلى التجارب الجديدة التي كانت لديها في الأسبوعين أو الثلاثة السنوية .

منذ طفولتها المبكرة كانت (مهرة) ترافق والديها وأخيها (ماهر) لمدة أسبوعين في عواصم ومدن العالم , في بعض الأحيان يرافق الأربعة مربية (مهرة) ومربية (ماهر) أستمرت تلك الرحلة السنوية لهم حتى أنقطعت في إجازة الصيف البائسة والسنوات التي تليها ثم عادت بعد ذلك في مرحلة الجامعة.

أولى رحلاتها إلى الخارج كانت في الدول التي لها حدود مباشرة مع وطنها ثم تطور الأمر حتى وصلت أقاصي العالم بعد تخرجها من المرحلة الجامعية كانت هناك عدة تغيرات تطرأ على آليات السفر ومدة السفر سنة بعد سنة.

طبيعة الرحلة كذلك تغيرت التي بدأت على نفس منوال رحلات العائلة النزول في الفنادق الفخمة وارتياد المطاعم الفاخرة حتى اكتشفت (مهرة) المنطقة التي ترتاح لها والتي تجمع بين فخامة الفنادق وبساطة الناس وبين الأكل اللذيذ ومعرفة ثقافة الشعوب التي تزورها.

بعض الدول كررت زيارتها ورأتها بمنظور مختلف وبعضها الآخر بعد أول زيارة لها ألغتها من قائمة الدول المرشحة لتكرار الزيارة , حتى وجدت الدول التي تناسب تطلعاتها وتلبي أهدافها من السفر وهي لا تخرج عن ثلاثة أهداف مجتمعة أو متفرقة حسب الدولة التي تزورها.

الطبيعة والمتاحف وثقافة مواطني تلك الدول على كافة مستويات الثقافة مثل الطراز المعماري والخلفية التاريخية لهم أو المستويات الأخرى مثل الطعام واللباس , وهذا جعلها تخرج بتصور عن طبيعة البشر.

كان تصورها الذي عزز ذكاءها الاجتماعي أن هناك طبقات عاموديه متراصة من كل مجتمع , كلما صعدت للأعلى كانت الطبقات يتقلص حجمها وعرضها وكلما نزلت للأسفل كانت شريحة الطبقة تزداد أفقياً وسماكة.

لم يقتصر تطبيق ذلك التصور على من تعامل أثناء سفرها الذي أزداد مع مرور الأيام ليصل إلى ثلاثة أسابيع وثبت في السنوات الأخيرة على تلك الأسابيع بل طبقت تصورها على العاملين معها في المؤسسة.

كل شخص تتعامل معه في المؤسسة تبني جسراً معه , إما أن ينهار ذلك الجسر بالفصل أو الاستقالة أو يبقى كما هو أو يزداد متانة مع المواقف والزمن مثل ما حصل بينها وبين (شادن) و(ليان) و(رجاء) و(الجازي) وغيرهم.

قد يقوم الجسر على الاكتمال ببطء شديد كما حصل بينها وبين (سعود) و(نضال) و(ساندي) و(وداد) وقد يكتمل الجسر بوتيرة متسارعة كما حصل بينها وبين (رجاء) و(ميعاد) و(عمار) و(زياد).

وقد يأخذ الجسر وقته بصورة طبيعية دون تأخير أو تقديم من (مهرة) كما حصل بينها وبين (فهد) و(عبداللطيف) و (لافي) و(سلمى) .

الوحيدة التي استطاعت أن تبني الجسر أسرع من الآخرين وبمتانة تضاهى متانة جسور (شادن) و(ليان) هي (الجازي) التي تمكنت من اختراق كل تلك الحواجز المصطنعة التي وضعتها (مهرة) في معاملتها مع الآخرين.

توظفت (الجازي) في المؤسسة بعد حصول (مهرة) على درجة الماجستير حيث مع ازدياد حجم أعمال المؤسسة بعد خروجها من الأزمة المالية التي تعرضت لها فتحت المؤسسة باب التوظيف لاستحداث الدعم الهندسي.

تواصل (عبداللطيف) مع المرشحين ممن وصل لهم الإعلان الذي أعددته إحدى الموظفات بقسم التسويق بتوجيه من (ليان) بعد أن أخبرتها عن فكرة الإدارة الجديدة بالقسم الفني التي اقترحتها عليها (شادن).

وصلت (الجازي) على الموعد لإجراء المقابلة الشخصية ودخلت للجلوس أمام لجنة المقابلة المكونة من (عبداللطيف) و (أحمد) و(شادن) و(مهرة) بعد خروجها تشاور الأربعة فيما بينهم حول (الجازي).

شادن : لديها خبرة جيدة في التخصص.

عبداللطيف : خمس سنوات مقبولة نسبياً.

مهرة : مقارنة بعمرها مقبول جداً.

أحمد : مهاراتها الأخرى تساند خبرتها.

مهرة : هي آخر المتقدمين.

شادن : وأفضل ممن سبق.

عبداللطيف : نضعها ضمن الخمسة المرشحين.

أحمد : هي أفضلهم , تستحق الفرصة.

مهرة : فضلاً (عبداللطيف) اعتذار واحتياط .

شادن : أتفق معك حول البقية.

أحمد : لا تنسوا مزحة الجليد.

ضحك الجميع قبل أن يمضي كل منهم إلى مكتبه , بعد أسبوع باشرت (الجازي) العمل في المؤسسة وكاد الجميع أن يوقعها في مزحة الجليد ولكن كان لـ (الجازي) رأي آخر حول تلك المزحة .

مزحة الجليد فكرة ابتكرتها (ليان) وفيها لا يتم الحديث مع الموظف الجديد أول ثلاثة أيام من العمل ومشاهدة ردة فعله وحيرته بعدم الحديث معه أو تكليفه بأي عمل , البعض يحاول جاهداً أن يثبت نفسه في شهر العسل الوظيفي وآخرون يقابلون الصمت بصمت والبعض قد يبكي أو ينهار من ذلك التجاهل المتعمد والمتفق عليه.

عدا (الجازي) في اليوم الثاني لها بالمؤسسة ذهبت إلى مكتب (مهرة) وأخبرتها أن (شادن) أرسلتها لها لتكليفها بعمل , أرسلت (مهرة) عبر هاتفها المحمول إلى (شادن) والتي أخبرتها أنها لم توجهها بذلك. قالت لها (مهرة) وهي ممتعضة:

- لم توجهك (شادن)

- أعلم

استغربت (مهرة) من إجابة (الجازي) الجريئة قالت لها :

- وما الذي دفعك إلى قول ذلك ؟

- انتظار عمل أو توجيه.

- وكيف عرفت أن (شادن) هي المسئولة عنك.

- من خلال حسابات المؤسسة في السوشال ميديا.

- كيف ؟

- وظفتموني في قسم الدعم الهندسي التابع للقسم الفني وفي إحدى منشورات المؤسسة قمتم على تكريم مديرة القسم.

- التكريم منذ سنوات.

اجابتها (الجازي) وابتسامة الثقة تعلو ثغرها :

- قرأت كل ما نشر من المؤسسة وعن المؤسسة .

أخفت (مهرة) انبهارها من ذلك الجهد قالت لها :

- ستكلفك (شادن) بالعمل.

- متى ؟

- في الوقت المناسب.

- إذن سأعود للمنزل حتى يأتي الوقت المناسب.

- سيتم احتسابه ضمن الغياب.

- غياب .. أي غياب ؟!

- غيابك عن العمل.

- وأين هو العمل الذي غبت عنه ؟!!

- حسناً .. عودي لمكتبك الآن.

- إذا كان هناك عمل.

- هل هذا تهديد ؟

- هل أنا مجنونة حتى أهدد مديرة المؤسسة ؟

- لا أعرف.

- صحيح أنني مجنونة ولكن خارج العمل.

تعجبت (مهرة) من رد (الجازي) التي أكملت :

- لا أخجل من وصفي بالمجنونة , أعترف بجنوني.

- هل لديك مشكلة نفسية ؟

- لا. وليس المريض النفسي مجنوناً !

- مشكلة عقلية؟

- لا. ولا أعاني من تخلف أو تأخر.

- هل تتناولين أدوية خاضعة للإشراف الطبي.

- لا. سوى أدوية الزكام .

- إذن لمَ تقولين عن نفسك مجنونة ؟

- لأنني أعمل في مؤسسة بلا عمل.

- ستكلفك (شادن) بالعمل.

- متى ؟

- في أقرب وقت

- إذن سأعود لمنزلي وحين يأتي الوقت المناسب أباشر

قلبت (مهرة) الأفكار في رأسها الموظف المشاكس في أحيان كثيرة يكون منجزاً أكثر من الموظف المطيع , عادت من ثواني الفكر وقالت لـ (الجازي) :

- سوف يحسم الغياب من راتبك.

- وهل هناك مؤسسة عاقلة تصرف رواتب لموظفين لا عمل لهم ؟

دهشت (مهرة) من أسلوب (الجازي) الهجومي وجدت أن الحل الأنسب هو توجيه (شادن) بتكليفها بعمل أفضل من الدخول معها في نقاش لانهائي قد يكشف المزحة.

وجدت (الجازي) في بريدها الإلكتروني الخاص بالمؤسسة رسالة عن مهمة لتقوم بها , استمرت (الجازي) في تنفيذها دون الحديث مع أي موظف أو موظفة حتى بعد انتهاء الثلاثة أيام , استدعتها (مهرة) وسألتها عن سبب عدم حديثها أجابتها:

- وجدت أن المؤسسة على وضع الصامت.

- وكيف ننجز أعمالنا في صمت ؟

- مثل الأيام السابقة , رأيت العمل مستمر.

- كانت تلك مزحة الجليد.

- لا أدري من المجنونة.

- ماذا ؟!

- قلت لا أدري من المجنونة أنا أم المؤسسة.

- كنت أعتقد ... (قاطعتها الجازي)

- وهل أنا مجنونة حتى أنعت مديرة المؤسسة بالجنون؟

- لا.

- طالما ليست أي منا المجنونة , المؤسسة إذن هي المجنونة.

ضحكت (مهرة) ضحكت المتبسم ثم قالت :

- روحك جميلة.

- أعلم .. وضعت لها المكياج قبل حضوري.

كان ذلك اللقاء وما قبله كفيل لأن ينشئ علاقات عمل صحية بين (الجازي) و(مهرة) وكذلك جميع العاملين بالمؤسسة على العكس من (ساندي) التي لم تنشئ علاقاتها مع الآخرين بصورة جيدة عند بداية عملها في المؤسسة.

جاء توظيف (ساندي) في المؤسسة بتزكية من (ميشيل) بعد أن تعرضت بيانات المؤسسة للسرقة من قبل مخترق مجهول , لم يستطع التقني (رؤوف) من استعادة البيانات المسروقة حينها اقترح (ميشيل) على (مهرة) الاستعانة بـ (ساندي) التي تعمل في عقد خارجي لإحدى مشاريع المؤسسة.

كانت (ساندي) تعمل في إحدى الشركات التي ترتبط مع المؤسسة بعقود تنفيذ الأعمال التقنية لبعض المشاريع حسب طلب العميل , قدمت لها (مهرة) عرض عمل بعد أن أعادت لها (ساندي) كافة البيانات المسروقة , وافقت (ساندي) ونقلت خدماتها إلى المؤسسة.

منذ اليوم الأول لها اخترقت (ساندي) كافة إيميلات العاملين وهذا ما دفع (مهرة) لأن تضغط أكثر على (رؤوف) لتعزيز حماية البيانات , علمت (ساندي) عن مزحة الجليد من (ميشيل) الذي كانت تمده ببعض البيانات التي يطلبها ولم تكن من صلاحياته الإطلاع عليها.

على العكس من علاقة (ميشيل) و(ساندي) التي كانت في الخفاء ولم تخفى عن حدس (مهرة) كانت العلاقة بين (نضال) و (ميعاد) واضحة وضوح الشمس تأملت (ميعاد) أن تنتهي تلك العلاقة الودية بالزواج وكان يأمل (نضال) أن تنتهي العلاقة وكل طرف فيها يمضي في حياته.

العلاقات الشخصية في المؤسسة كانت قليلة الحدوث , بعضها يتطور إلى صداقة وبعضها الآخر لا ينمو ولا يضمحل , لم تتطرق (مهرة) إلى هذا الجانب مع العاملين معها , كانت ترى أن الحديث عن هذا الموضوع له أبعاد كثيرة وقد يشير إلى وجوده كظاهرة في المؤسسة وتضخيم ما لا قيمة له في سير العمل بالمؤسسة طالما أن العمل يسير فيها بانضباط وإنتاجية.

وضعت القاعدة العامة للمؤسسة ضمن قواعد أخرى , حدود التعامل هي حدود العمل تلك القاعدة قسمت المؤسسة إلى نصفين أحدهم يتفق مع القاعدة ويطبقها والنصف الآخر لا يتفق ولا يطبقها أو يطبقها مرغماً.

تحامي عن حزب النساء في المؤسسة (الجازي) وغريمها الذي يحامي عن حزب الرجال (عمار) الذي حدثت بينه وبين (الجازي) مشاحنة ذات يوم من خلال تعريض (عمار) بإسمها وحين وصل الموضوع إلى (مهرة) أنحسر التعامل بين الحزبين على الاحترام والعمل فقط إلا في استثناءات قليلة من بعض العاملين , كان عتاب (مهرة) كافياً لأن يلتزم كل طرف حدوده.

لم يكن ذلك التعريض وليد اللحظة , بل نتيجة تراكمات من المشاحنات بين الأقسام وبين الموظفين والموظفات من المشاحنات التي كانت تحدث بصورة متكررة ما يحصل بين قسم التطوير وقسم الدعم الهندسي.

حين يكون لدى المؤسسة مشروع تجديد مبنى داخلياً أو خارجياً أو كلاهما يرسل القسم الفني التصاميم إلى قسم التطوير ليضع عليه لمساته وفق منظور قسم التسويق , بعد أن ينتهي قسم التطوير من عمله يرسل تلك التصاميم إلى قسم الدعم الهندسي حتى يتم تحويل تلك الأفكار إلى مخططات قابلة للتنفيذ.

تحدث المجادلة والمشاحنة عند وصول التصاميم للدعم الهندسي , بعض تلك التحديات للقسم تشكل فرصاً لابتكار أو استلهام حلول هندسية إبداعية وبعض التعديلات أو الإضافات لا يمكن تطبيقها هندسياً إما لارتفاع التكلفة أو عدم توفر التقنية اللازمة او عدة اعتبارات هندسية أخرى.

من جهة قسم التطوير لابد من إجراء تلك التعديلات والإضافات ليحدث الصدام بين الطرفين , عن قسم التطوير(رويدا) ترسل (عمار) إلى (الجازي) ليحدث الجدال والتنازع حول الرأي في المشروع المطلوب تجديده.

تكتفي (رويدا) بمشاهدة الصراعات بين موظفيها في القسم وبين أقسام المؤسسة , بحكم طبيعة عمل القسم هناك مجال ومساحة لعمل القسم في الأقسام الأخرى حيث من مهام القسم تطوير داخلياً آليات العمل وخارجياً تطوير بعض المشاريع حسب متطلبات التسويق , المساحة الوحيدة التي لم تتمكن (رويدا) من اختراقها هي قسم المالية والقسم الفني والإدارة .

محاولاتها المباشرة والغير مباشرة باءت بالفشل , ترى (شادن) وتوافقها (سلمى) أن التطوير في العمل ينبع من داخل القسم , نظريات تطبيق التطوير من خارج القسم لا جدوى منها ما لم تكن مبنية على إلمام تام بتخصص القسم.

قبل الوباء كان لكل قسم هويته الخاصة به وطريقته في العمل وهناك المنظومة الشاملة التي تعمل بها جميع الأقسام , لا يمكن كما قالت (مهرة) إلى (رويدا) وآخرين أن يتم وضع قالب واحد لكل الأقسام.

القوالب المحددة في المنظومة الشاملة بالمؤسسة هو ما له علاقة بالمسيرة المهنية للموظف وحقوقه وواجباته , من تلك الواجبات الالتزام بالساعات المحددة للعمل دون إلزام بوقت حضور محدد.

من يحضر الثامنة ينصرف في الخامسة ومن يحضر في التاسعة ينصرف في السادسة وهكذا ساعة بساعة , أقصى توقيت لقبول الحضور الثانية عشرة ظهراً وأقصى توقيت لقبول الانصراف التاسعة مساءً.

مع ذلك كان بعض الموظفين والموظفات يزيدوا في يوم ويأخذون مقابله في اليوم الذي يليه أو العكس , في الغالب يحدث ذلك عند تسليم مشروع أو حين يكون الموعد النهائي لتسليم المشروع قد اقتراب جداً.

ما يتجاوز مائتين وثمانية ساعة في الشهر يحسب للموظف بأجر إضافي , البعض تجاوز عدد الساعات تلك والبعض الآخر لم يكملها كاملة , الوحيدة من لحظة بداية عملها وحتى حدوث الوباء ألتزمت بعدد الساعات هي (سلمى).

تأتي كل يوم في الثامنة إلا عشرة دقائق , تفتح مكتبها بعد أن أثبات حضورها بالبصمة , عند آذان الظهر تغلق باب مكتبها لتصلي وتأكل شطيرة جاهزة تحضرها معها , عند آذان العصر تغلق مكتبها وبذا تكون استنفذت ساعة الراحة المتاحة للجميع , في الخامسة وعشر دقائق تغلق مكتبها لتثبت انصرافها بالبصمة , العشرون دقيقة التي تقدمها للمؤسسة تحسب لها يوم عمل كامل نهاية كل شهر تارة تأخذ مقابله في راتبها وتارة تأخذه إجازة لها.



- عيطموس

- مهرة .. كنت (قاطعته)

- متى عُدت

- حين غفوت بعد اتصالك المرئي مع (ليان)

- أووه .. لقد افتقدتهم.

- ألم تفتقديني ؟

- وهل الخيال يفتقد ؟

- نعم .. حين يموت الإبداع.

- ومتى يموت الإبداع ؟

- حين يتلاشى الشغف.

- من جاء أولاً.

- حسناً .. فهمت!

خرج (عيطموس) من باب منزل أسرة (تالين) مسكينة (تالين) لا أعرف كيف تتحمل عبء ذلك الحزن الذي تحمله ؟ لحقت (عيطموس) ولم أجده , نزلت أحمل بيدي دفتر الملاحظات والمرسام والألوان .

عندما انتهت الدرجات كنت في الممر الذي يعبر من أمام متجر أسرة (تالين) جلست في الممر على مصطبة حجرية تقع بالقرب من باب المتجر , آنست الجلوس عليها منذ ساعة وصولي إلى البلدة , لا يزال عقلي يهمس لي أن أفكر في الوصول إلى نسخة من جواز سفري , ولا تزال مشاعري تئن من وجع مصاب (تالين) الصغيرة , كم هو غرور هذه الدنيا تخطف من أيادينا أجمل وأغلى ما نملك عندما نظن أننا نملكه , أثناء تدويني في دفتر الملاحظات ساورني شعور بالرسم , لعل الرسم يخفف عني بعض الوجع , نظرت أمامي لأرسم.



عندما لا يكون أمام الإنسان إلا أن يرسم , تلك ساعة تعطلت فيها لغة الحرف ليعبر قلم التشكيل او الفرشاة , لا أعرف كيف استطاعت (تالين) رغم صغر سنها أن تتحمل الفقد , يا ترى أيهما أكثر وجعاً فقد الإنسان وهو حي أم فقده وهو ميت؟

فقدت ثلاثة أفراد من عائلتها مرة واحدة , حين أخبرتني عن فقدانهم في حادث مروري وهم ذاهبون لإحدى الاحتفالات الدينية في مدينة أخرى , شعرت أن صدمت الخبر خاطت شفتاي بسلك من الوجع , لم أتمكن من مواساتها إلا بعد يوم من سماعي الخبر منها. قالت لي (تالين) بعد أن سألتها :

بعد ذهابك نوفمبر الماضي , ذهبت جدتي ووالدي وأخي صباح اليوم التالي لركوب الحافلة الصغيرة التي تسير إلى حيث يقام الاحتفال ... (سألتها)

- هل لاهتمامك بالمتجر لم تذهبي ؟

- ذلك نصف السبب.

- والنصف الآخر ؟

- ألا يكفي نصف سبب ؟

- بلى .. أعتذر.

- كان السائق قد بدأ الاحتفال من الليلة التي تسبق الحادث.

- لم ينم ؟

- وكان مخموراً.

- أووووه ! .. كيف تركوه يقود الحافلة ؟

- لم يكن السائق الوحيد الذي يصنع ما صنع.

- ولمَ أهالي البلدة لا يمنعونهم ؟

- يمنعونهم ! (ضحكت تالين ضحكة ساخرة تبعتها بتنهيدة) سألتها :

- ماذا ؟

- لا يمكن السيطرة عليهم.

- الأ توجد نقابة أو جهة لها سلطة عليهم.

- لا أحد يهتم .. ولا أحد يكترث.

- حالة صعبة.

- لا أحد يعلم عن ما نعانيه .

- الأ يوجد من يرعى شئونكم؟

- منذ متى أنتشر الوباء ؟

- خمس أو ست أشهر تقريباً .. لا أعرف بالتحديد.

- منذ بداية الوباء وحتى الآن لم يوفروا لنا قرصاً واحداً.

- ما السبب ؟

- رينا مارينا بلدة خارج العالم.

- قرأت عنها , الجميع يمتدحها.

- لكنك لم تريها على حقيقتها.

- مما رأيت خلابة هي رينا مارينا.

- رأيت الوجه المضيء من البدر.

- أراها بلدة هادئة وادعة جميلة أهلها ودودين.

- ذلك هدوء القبور ووداعة المحطمين وقبح الجمال.

- أنتم كرماء ودودين والدليل استضافتك لي بمنزلك.

- استضفتك لأنك ...

- لأنني ماذا ؟

- لأنك كما قالت الجدة (تالين)

لم يقبل عقلي ردها الأخير وإن تظاهرت أمامها أنني قبلت به , كيف ترى جمال الحياة وهي ترى الجمال قبحاً ؟ حين أخبرتها عن المشكلة التي وقعت بها شعرت بمدى ضآلة مشكلتي وصغرها أمام مشاكلها.

بعض تجارب الحياة تساعدنا على صقل مهاراتنا وقدراتنا وبعضها الآخر يدفعنا إلى النضوج بصورة أسرع , كما أرى أمامي في (تالين) التي دفعتها تجاربها في الحياة لأن أراها امرأة في الخمسين في ثوب فتاة بالعشرين.

أخبرتني (تالين) عن حياتها في أحاديثنا التي نتسامر فيها كل ليلة حتى الصباح ولدت (تالين) بعد الألفين كانت الأخت الصغرى لأخوين أحدهما يكبرها بسنتين والآخر بأربعة , تعرض أكبر أخوتها للقتل , كانت في الثانية عشرة حين بلغها نبأ مقتله و إصابة أخيها الآخر الذي شارك معه في الشجار.

لم يتم العثور على الشبان الثلاثة الذين تشاجروا مع أخويها (ثيودور) و(ليو) حاول والدها الوصول إليهم ولكنهم كانوا قد تركوا البلدة إلى حيث لا يعلم أحد حتى أهاليهم الذين حاولوا التخفيف عن والد (تالين) ووالدتها وجدتها.

بعد أن تماثل أخيها الآخر للشفاء باستخدام الأعشاب والعلاج بالمنزل أخرجه والدها من المدرسة وجعله يعمل معه لدى معمل الفخار الذي يعمل به والدها منذ أكثر من عشرين سنة , حاول الجميع ثني والدها عن قراره ولكن اصطدموا بجدار من الإصرار أكثر صلابة من فخار متحجر.

كانت والدتها تعاني المرض الفتاك , تسارع انتشاره بعد وفاة أخيها الأكبر, في النهاية أكل المرض والدتها حتى ماتت و(تالين) بين الرابعة والخامسة عشرة ، ذلك الفقد جعل الحياة فارغة في عيني (تالين) لا طعم لها ولا نكهة كما قالت لي , ذلك صحيح ، الفقد والحياة مذيب ولوحة زيتية .

وقفت (تالين) مكان والدتها في متجر جدتها , كانت والدتها تساعد والدة زوجها بالوقوف معها في تشغيل المتجر الذي افتتحته (تالين) الكبيرة وزوجها بعد ميلاد أبنها الوحيد والذي عاد للعيش في البلدة بعد فقدان جدها في إحدى المعارك الحربية التي شارك بها.

لكنه لم يعد بمفرده كما رحل بمفرده بل جاء برفقة زوجته / والدتها وأنجب الاثنان جميع أطفالهم في البلدة , تحديداً كما قالت لي (تالين) في منزل إحدى القابلات المحليات اللائي يقمن على المهنة ويتوارثون أسرارها.

كانت محامية الدفاع عن (تالين) جدتها التي منعت والدها من إخراجها من المدرسة , حتى تخرجت قبل عامين من الثانوية , تود استكمال رحلتها التعليمية والحصول على الشهادة الجامعية لكن المتجر وموقف جدتها كانا يحولان دون ذلك الطموح المشروع.

عندما كانت تخبرني عن علاقتها مع والدتها , كنت أرى في عينيها بريقاً يشبه البريق الذي شع من عيناها حين أخبرتني أنها استضافتني لان جدتها قالت تلك العبارة , سألتها هل تحتفظين بصورة لها , ردت بالإيجاب.

حين أحضرت الصورة ذات الإطار الخشبي العتيق , سألتها كيف كانت علاقتك بها ؟ نظرات عينيها وتعابير وجهها تكفي عن مليون تعبير ومليون جملة , قالت وهي تأخذ الصورة من بين يداي

- كانت الروح التي أعيش بها في الحياة.

لم أتمكن من الرد عليها , شعورها ذلك وإن وصل إلي وتغلل في وجداني إلا أنني لم أجربه , كيف أخبرها أن علاقاتي الأسرية لها طابع مختلف.

من قال أن الغنى مرتبط بالمال فقط , عشرات الأسر التي تعاملت معها خلال عمري وجدت أنها غنية وغنية جداً لكنها فقيرة وفقيرة جداً في علاقاتها الأسرية وفي ترابط الأسرة فيما بينها , ووجدت عشرات الأسر الفقيرة والفقيرة جداً لكنها غنية وغنية جداً في وثاقة العلاقات بين أفراد الأسرة .

ليست تلك قاعدة عامة تنطبق على الجميع , هناك الاستثناء الذي لا حكم له ، التعامل مع الأطياف المختلفة من المجتمع جعلني أرى إيجابيات الآخرين بصورة أوضح ،لايوجد إنسان كامل , من يدعي الكمال مريض بالغرور, أهناك درجات للغرور ؟ تبدأ من تضخم حب الذات حتى جنون العظمة , لا أعرف.

منذ أن استضافتني (تالين) أمسى لنا جدول يومي متقارب , نتسامر طوال الليل حتى مطلع الفجر , تأوي (تالين) للنوم في حجرة والدها وأخيها , بينما استمر بعد أدائي للصلاة بالقراءة من المصحف الذي حملته على الهاتف الذكي حتى قرابة السابعة صباحاً .

تسبقني دوماً (تالين) في الاستيقاظ خلال فترة الظهيرة , في ذلك التوقيت بعد أن تتناول (تالين) طعامها في الحجرة نخرج إلى سوق مسقوف قريب نشتري خضار اليوم من سيدة تدعى (لورين) والخبز المحلي إذا لم يأت به بائع الخبز المتجول، وبقية النواقص الغذائية من معلبات وغيرها من جيران (لورين) من الباعة الآخرون.

بعد أدائي لصلاة العصر أبدأ في إعداد وجبة الإفطار بالنسبة لي ووجبة الغداء بالنسبة إلى (تالين) في الأيام الأولى معها عندما علمت هي عن مسألة الصيام كانت لا تأكل حتى آذان المغرب مراعاة لمشاعري , حين أخبرتها أنها يمكنها فعل ما تشاء جاءت مراعاتها في تناول الطعام بحجرة والدها.

أثناء إعدادي للطعام تقوم هي على ترتيب الأسرة وتنظيف المنزل , استشرتها في اسم نزل أمكث فيه حتى أجد حلا لمشكلتي , أخبرتني أن بقائي معها يؤنسها ولا تمانع أن أبقى كما أشاء , حاولت أن أقدم لها مبلغاً مقابل بقائي فما كان منها إلا أن قوست ثغرها للأسفل وهي تهز رأسها بالنفي.

من قال أن الكرم محصور فقط لدى ثقافة محددة أو عرقية خاصة , روح العطاء موجودة لدى أغلب شعوب الأرض مع اختلاف على نوع ومقدار الكرم هناك من يكون كرمه بماله وما يملك مهما كان قليلاً , وهناك من يكون شحيحاً حتى في تعامله وأخلاقه مع الآخرين.

في أول المساء أتابع معها مسلسلها اللاتيني والذي لم أكمل حلقاته حتى النهاية نتناقش أثناء وبعد المسلسل عن أحداثه وشخصياته ونحلل ونتوقع بعد انتهاءه ليكون تحليلنا ذلك وتوقعاتنا بداية سهرتنا التي لا يقطعها سوى تحضيري في منتصف الليل السحور بالنسبة لي والعشاء بالنسبة لها.

أنام في حجرتها التي كانت تشاركها مع جدتها , لا يوجد فيها شيء مميز غرفة من أربعة جدران ذات لون بيج شاحب , لها نافذة شرقية مربعة مصنوعة ومطلية هي وباب الغرفة من خشب القيقب المطلي بلون البانتون , كل مرة بعد الكتابة في دفتر الملاحظات وقبل نومي أفكر في الباب والنافذة , لونها الداكن الباهت الكئيب يدفعاني إلى الجنون بخطوات مستفزة بطيئة , أحاول جهدي أن لا أتطفل على حياة (تالين) وأقترح عليها بعض التعديلات.

ليس من اللباقة أن نتدخل في حياة الآخرين ونبدي آرائنا فيها , وإن كان هذا الواقع الذي يفعله كثيرون , رغم أن تخصصي الأكاديمي والعملي إلا أنني أجد حرجاً في إعطائها آرائي التصميمية والتي يدفع الآخرون مقابلها , أعجب ممن يفتي في غير تخصصه وما أكثرهم !

التمثال البرونزي الصغير الذي وضع على رف جدار الصالة لامرأة تحمل بلورة على شكل قطرة يجذبني للنظر إليه كلما مررت من جواره , تفاصيل كثيرة في ذلك المنزل تستحق أن تذكر وتفاصيل أكثر تستحق أن تُرسم.



فـي عـصر الـيوم الـتالـي ونـحن ذاهـبتان لشـراء الـحاجـيات الـيومـية سألـتها أيـن يـمكنني أن أجـد المـقاس A3 مـن الأوراق أخـبرتـني أن كـان يؤدي الـغرض كراس رسم , علقت بـالإيـجاب , فـي طريق عـودتـنا فـتحت المتجـر ودخـلت مسرعـة لتـخرج بـعد هيـنة بيدها كراسة يعلوها الغبار.

لم أسألها عن سبب دخولها السريع إلى المتجر , ربما تود الهروب من ألم التذكر ووجع الذكرى , هل كانت تعرف ما أفكر فيه حين قالت ونحن ندخل المنزل " دخلت مسرعة للمتجر حتى تبقى الرائحة فيها كما ألفتها"

اتصالات والداي و(شادن) جاءت بنتائج مثمرة , تواصل معي مندوب القنصلية وأخبرته عن بقائي حتى انتهاء بعض الأعمال التي تمنعني عن الرجوع , أستغرب أن تأشيرتي للسياحية وأفادني أن علي تجديدها للبقاء.

كنت مترددة بين حرية التجوال في بلد غريب وحظر التجوال في بلدي بين اختيار القصور في الرعاية الصحية والعناية العالية في الحفاظ على الصحة ،بين البقاء في مكان لا أنتمي له ولا ينتمي لي ومكان ينتمي لي وأنتمي له المنطق يدفعني إلى اختيار والوجدان يدفعني إلى اختيار آخر.

أن يتقبل الإنسان نفسياً ما يعتقده عقلياً أنه خطأ , تلك سطوة الهوى التي أن وقع فيها الإنسان يصبح كل خطأ من المنظور العقلي صواباً من المنظور العاطفي , وهذا ما أحاول عدم الوقوع فيه , تذكرت حين انتقلت إلى دراسة التخصص في مدينة أخرى نصيحة والداي , كانت النصيحة عن الميزان الرباعي الحرية تقابلها دوماً المسئولية والثقة عدوها اللدود الخذلان , الآن أدركت قيمة هذا الميزان , وفهمت الآن لمَ كنت أترفع عن سفاسف الأمور ليس فقط للاعتبارات الكثيرة بل أولاً حتى لا تسقط نفسي من عيني.

باستخدام علبة هندسة قديمة وكراسة رسم تقارب حجم ورق A3 بدأت أرسم مخططات معمارية , سألتني (تالين) أهي أحدى المهام أو الأعمال المطلوبة مني , أخبرتها أنها فكرة طرأت على ذهني وأحببت تثبيتها عبر رسمها.

- تشبه المنزل.

- استلهمت الفكرة منه.

- هل يمكن أن يصلح للمنزل ؟

- مع بعض التعديلات يمكن.

- وهل يمكن أن ننفذه ؟

- إذا توفرت المواد والأيدي .. يمكن.

حواري مع (تالين) بعد أسبوع من إتمام رسم المخططات وعرضها عليها لأخذ رأيها فيها كان شرارة الانطلاق نحو مشروع تجديد المنزل , كانت الصعوبة في وضع أفكار المشروع شيئان أساسيان المواد والأسلوب.

لكن الإجابات على الأسئلة الثلاثة المهمة المتعلقة بالوظيفة التشغيلية , الوظيفة البيئية , الوظيفة الرمزية كانت عوناً لأن أضع نسب المعادلة الصحيحة بين النفعية والجمالية , ولأن أخرج مع (تالين) بتصور عن الأسلوب وقائمة المواد تلك القائمة التي كتبناها سوياً لإتمام المشروع أخبرتني بعد تدوينها عن صديق أخيها والذي كان يعمل معه في معمل الفخار وأنه قد يكون لديه رأي يعين في كيفية توفير المواد داخل " رينا مارينا " أو حيث تتوفر بالقرب منها.

قبل ذهابنا لشراء الحاجيات اليومية عصراً , توجهنا نحو منزل صديق أخيها يقع المنزل في الطرف الآخر من البلدة , عبرنا من فوق جسر المشاة الحجري الذي يربط طرفي البلدة بعضهما ببعض.

إلى يساري مدخل البلدة للقادم من العاصمة / المدينة الرئيسة وعن يميني ساحة صغيرة يتوسطها تمثال رخامي لرجل يمسك رمحاً بامتداد أشعة الشمس التي تسقط من وراءه وتتوازى لحظياً مع اتجاه الرمح نحو مدخل البلدة وكأنما التمثال حارس المدخل الذي يقف ديناميكياً في تفاعل إدراكي بين الكتلة والفراغ بين الرخام والهواء والفولاذ وأشعة الشمس أو ربما هذا التصور الذي أراده المنسق أو المصمم الحضري ، هل همس لي في ذلك التأمل السريع (عيطموس) لأستمر في المشي بصمت ؛ لا أعرف ، ربما.

بالقرب من تمثال آخر في الطرف الجنوبي من البلدة شاهدت محل خياط أزياء نسائية , اقترحت على (تالين) أن نزوره , لم تمانع ولكنها حذرتني أن أتحدث مع الخياط في مواضيع جانبية حين سألتها عن السبب أشارت بسبابتها نحو فمها لأفهم من تلك الإشارة أنه يحب الكلام.

أثناء سيرنا من جوار التمثال الذي يشبه الموجود في منزل (تالين) , أخرجت الهاتف الذكي وكتبت في محرك البحث موديل معين أفكر أن يخيطه لي الخياط إن استطاع , حين دخلنا لمحله كان المنظر الذي شاهده والذي رسمته لاحقاً بعد أن صورته على هذه الهيئة



دخل من خلفنا الخياط متوسط العمر والبنية , اعتذر وهو يدخل من أسفل الطاولة ليقف أمامنا خلف ماكينة الخياطة , رحب بنا وسألنا عن حاجتنا ترجمت له (تالين) أني صاحبة الخدمة , أريته من هاتفي العباءة , سأل عن ماهيتها ؟ أخبرته , فهم أنها نوع من الأردية المخصصة للنساء , سألني عن الخامة وأخبرته أنني سأحضرها له. حين خرجنا من لدنه سألت (تالين)

- ما قصة هذا التمثال ؟

- هذه رينا مارينا.

- ما حكايتها ؟

- أسطورة شعبية .

كتبت في محرك البحث ثم قلت لها :

- لا يوجد شيء مذكور عنها.

- خرافة محلية , أتظنين أن بلدة بائسة يكترث أحد لخرافاتها.

- أليست رمزاً ؟ لو لم تكن كذلك لما سميت البلدة باسمها.

- كانت رمزاً .. مات اللذين يؤمنون بالرموز والأساطير.

- من يعرف حكايتها ؟

- هذا منزل (إيفان).

طرقنا الباب خرج لنا طفل يشع بالحياة في ملابس رثة سألته (تالين) عن (إيفان) غادر راكضاً للداخل تاركاً الباب مفتوحاً , جاء (إيفان) شاب يقارب (تالين) في العمر , حين التقت عيناهما كان فيهما ذلك البريق الساحر.

حين نظر نحوي (إيفان) قالت لي (تالين) اعطه القائمة , أخرجتها من جيب المعطف ومددتها له , قبل أن نمضي أدخل (إيفان) رأس الطفل الذي كان يزاحم بين قدم (إيفان) وبرواز الباب الذي أغلقه (إيفان) بعد أن مضينا .

- هل أسأل ؟

- عن .. ؟

- عنكما ؟

- من (إيفان) وأنا ؟

- نعم.

- لاشيء بيننا.

هل كانت نبرة كاذبة ما سمعته أم أن أذناي لم تسمع جيداً , عند مرورنا من جوار التمثال قالت (تالين)

- دعيني أخبرك من هي رينا مارينا.

- أسمعك .

- رينا مارينا هي ملكة البحر.

- من الحوريات.

- ليست كذلك.

- السابرينات.

- وليست منهن.

- ماذا تكون إذن ؟

- مخلوق بحري لا تقابل البشر وتتجنب لقائهم , هكذا تحكي الأسطورة.

- وكيف أرى لوحات وتماثيل عنها في البلدة.

- حسناً دعيني أخبرك الحكاية كما سمعتها من الجدة (تالين)

- وددت لو سمعتها منها.

- كانت ستحكيها بطريقة ممتعة ومشوقة.

- أكانت تؤمن بها؟

- كانت.

- وأنت؟

- قبل أم بعد ؟

- قبل أم بعد ماذا ؟

- قبل وفاتها أم بعده؟

أخذنا حاجياتنا الأساسية التي نبتاعها يومياً وعدنا للمنزل , شربت جرعت ماء بعد مغيب الشمس , رغم اختلافي مع (تالين) في كثير من الأفكار والمعتقدات إلا أن هناك رابطة خفية بيننا , أهي رابطة الإنسانية ؟ لا أعرف .

أم أن الرابطة هي نظراتها الباحثة في عيناي عن مفقود لديها أم أنه ذلك الهدف الذي أسعى إليه ووجدت في (تالين) الفرصة لاقتناصه , أصبحنا مثل الأختين من عائلات مختلفة , بل من عرقيات مختلفة.

بعد أيام عدنا إلى (إيفان) بعد أن أرسل لنا أخيه الأصغر , أخبرنا عن كل ما سألناه عنه من مواد , فكرت برهة وقررت في لحظة ونفذت على الفور ,هناك تعديلات على المواد , وهناك ذائقة (تالين) التي ينبغي علي التوفيق بينها وبين المواد المتوفرة وحرفية الأيدي العاملة , أكثر المواد والخامات جودة لن تشفع ليد سيئة التنفيذ مثل أكثر المواد والخامات رداءة لن تخدم اليد المحترفة جيدا.

مع وضع (إيفان) في معمل الفخار سأطلب منه أن يقوم بعمل (سعود) و(فهد) قبل تعينه مديراً تنفيذياً , التوريد وإبرام العقود هي هي العقود سواء كتبت بالعربية أو بأي لغة أخرى , الأهم أن يختار الحرفيين بعناية تامة والمواد بجودة عالية وتلك لغة تقرأها عين الخبير قبل التنفيذ.

وافق (إيفان) مباشرة على القيام بأعمال التوريد وإبرام العقود مع المنفذين من خارج البلدة , في الواقع أكثر الأعمال تتطلب مواد وأيدي غير متوفرة في رينا مارينا , في طريق عودتنا من لدنه زرنا محل أقمشة قبل المغيب سألتني :

- هل انتهت أيام صيامك ؟

بعد أن شرحت لـ (تالين) سبب شربي للماء وعدم القيام فيما كانت تظنه تمارين تأمليه , اتضحت لدي صورة أشمل , كثيرون يأخذون تصوراتهم عن الدين من وسائل الإعلام دون النظر إلى تحيزات تلك الوسائل وصحة التصور.

دفعني ذلك لأن أبحث عن مكتبة أو مكتب للنسخ والتصوير , كانت الصدمة أن الحواسيب المستخدمة في مكتب الطباعة المجاور للسوق الذي نبتاع منه حاجاتنا اليومية كانت قطع من التاريخ المعاصر , الشاشة التي تشبه جمجمة مومياء من الرؤوس الطويلة , الفأرة التي بداخلها كرة مطاطية , لوحة المفاتيح التي مُسحت منها الحروف والرموز , الطابعة التي تصدر أزيزا يشبه أنين المثقلين بالهموم والأوجاع , أحقاً رينا مارينا كما قالت (تالين) ؟

أعادني المنظر الذي شاهدته إلى سنوات من العمر , حين بدأت القراءة الحرة كان الانترنت في دخوله إلى بلدي لا يزال طفلاً في الثامنة من عمره , لم أهوى تلك الشاشة المربعة كثيراً حتى دفعني الأوتوكاد لها , تجربة الحياة أكبر من شاشة مصنوعة من سيلكون وزجاج وبلاستيك , استهوت تلك الأجهزة (ماهر) الذي كانت غرفته أشبه بمحل صيانة أجهزة إلكترونيات.

قرأت الموظفة الترجمة عبر الهاتف الذكي , كتبت لي أن أحضر الملف على قرص مدمج بصيغة محددة لطباعته , الأشياء الصغيرة البسيطة التي قد لاندركها لتعودنا على أشياء اكثر فعالية منها تتحول إلى أشياء في غاية التعقيد إذا لم يكن لها وجود في زمن التقنية المتسارعة والإمكانيات المحدودة.

عدت إلى منزل أسرة(تالين) أخفي إخفاقي في جيب معطفي الطويل مع يداي التي في أحداهما سلة بها خبز وخضار أحملها بساعد ذراعي الأيسر , من جمال هذه البلدة أن المنتجات الزراعية تأتي والمخبوزات تصنع طازجة يومياً.

وضعت الرداء المنسوج من الكريب الذي ابتعته من المتجر الكبير الشامل مع (أرموليا) في الغسالة , تدور الأفكار في رأسي مثل دوران الغسالة , أرغب في شراء ملابس لا يمكنني البقاء بين هذه الثلاثة أطقم لأسابيع قادمة.

في بعض الأيام تذهب (تالين) بمفردها لشراء الحاجيات اليومية وفي بعضها الآخر يكون دوري للقيام بذلك , الفترة الماضية التي قضيتها في البلدة ساعدتني في اكتساب بعض الكلمات والجمل من اللغة الأم لسكان البلدة والذين كان القليل منهم يتحدث لغات اخرى بحكم الاحتكاك مع السياح.

اقترحت على (تالين) أن نذهب للتسوق ونشتري بعض الملابس , كانت موافقتها ممزوجة بالتمنع في بدايتها , توجهنا صوب الطرف الجنوبي من البلدة , هناك مكتب التحويلات وصرافه أثريه ومتجر متوسط لبيع الملابس.

ليس الزمان ولا المكان مناسب للبحث عن العلامات التجارية العالمية الشهيرة بالأزياء أغلب الملابس المعروضة هي صناعة محلية أو مستوردة من دول مجاورة المعيار للاختيار هي خامة القطع المختارة وجودتها.

اتفقت مع (تالين) أن نعود في يوم آخر لاستكمال التسوق , خرجنا تحمل كل واحدة عدة قطع من اختيارها , في المنزل وضعت الملابس الجديدة في الغسالة بعد مقايستها فيما كانت (تالين) تجلس في الحجرة التي تنام بها ،أخرجت الملابس لنشرها ولا تزال (تالين) في حجرتها , طرقت الباب بلطف لأطمئن عليها , أجابت بصوت خافت أنها بخير.

أكملت أعمالي بالمنزل أعجب من نفسي كيف كانت تلك الأعمال في بداية العمر يقوم بها الآخرين ، ثم مع مرحلة الانتقال أقوم بجزء ويقوم الآخرون بجزء والآن أقوم بكل الأعمال عدا بعضها الذي تقوم به (تالين) والتي حين نظرت ولمست يداي قالت لي "هذه اليدين لم تعرف شقاء الأعمال المنزلية" وقد صدقت.

وضعت الطعام بعد إعداده , طرقت عليها الباب , أجابت بالنفي , تناولته وبين اللقمة والأخرى فكرة أو تساؤل , حان موعد المسلسل , أعدت طرق الباب ، فتحت الباب بهدوء وعادت للجلوس , تنظر أمامها على السرير الآخر أكياس الملابس لم تلمس , سألتها " ما بك يا (تالين) ؟! " لم تجب على سؤالي .

جلست جوارها وضعت يدي على كتفها , عانقتني وعادت إلى نوبة البكاء الذي كنت أسمع همهمته من خلف الباب , شعور الأخت الكبرى تأكد في داخلي آنذاك , شاركتها حزنها ودمعها الذي لا أعرف سببه.

كان شعور البكاء مختلفاً حين عرفت السبب , بحجم الاختلاف بين المتعاطفة بالشعور والشاعرة بالعاطفة , منذ أن توفيت (تالين) الكبيرة لم تجرب (تالين) الصغيرة إحساس الملابس الجديدة , إلا أن الجزء الأكبر من السبب أن أمها كانت ترافقها إلى ذات المتجر لتشتري لها الملابس والأحذية !

تصرف عفوي صغير نقوم به بصورة طبيعية في حياتنا قد يعني شيئاً كثيراً لدى الآخرين , تذكرت حين سافرت مع (ليان) وأطفالها إلى مدينة ساحلية جلست طوال اليوم في غرفتي بالشاليه , علمت (ليان) السبب لاحقاً واعتذرت.

كان الأحرى بي أن أخبرها , لكن الحرص على عدم إفساد مهجة (مراد) و (مرام) نجاحهم في الصفوف الأولية وطلبهم مرافقتي لهم حالت دون ذلك دفعني لقبول دعوة (ليان)اعتذار (شادن) لهما في تلك الليلة لارتباط أسري أما ما دفع (ليان) للسفر في ذلك التوقيت هو عدم رغبتها في حضور عقد قران طليقها السابق وابن خالتها كانت تلك عوامل ضاغطة لمرافقتي لها ولطفليها.

كثير من الأشياء التي نحبها أو نكرها , نخاف منها أو نطمئن لها , نعرفها عن المحيطين بنا أو يعرفها من حولنا مصادفة أو في حديث عابر , استطاعت (شادن) أن تواجهه مخاوفها على العكس من (ليان) التي تحاول الهروب منها.

أثناء تواجدنا مساءً لدى الخياط بعد أن أحضرت قطعة من خامة الكتان دخلت فتاة معتدلة القوام , مع دفعها على ما يبدوا بقية حساب طلبت من (تالين) أن تسألها من أين ابتاعت ما ترتدي , أجاب الخياط نيابة عنها وهي تخرج , سألت (تالين) الخياط من أين أحضره أخبرها أنه قام على تفصيله , بدأ مثل القرد بين أغصان الشجر يقفز من ناحية إلى أخرى يخرج لنا قطعة تلو أخرى.

خرجنا من لدنه بعد أن اتممنا إتفاق تفصيل الرداء الذي طلبته منه وبعد أن أرسلت له (تالين) المودبل إلى هاتفه وأعطيته المعطف الطويل ليأخذ المقاسات منه مع زيادة في الطول , مع مرورنا من جوار تمثال رينا مارينا قلت لها : -يكذب.

- أعلم.

- كيف علمت بكذبه ؟

- لأنه يشتري الفساتين من بائعات متجولات ويقوم على التعديل عليها.

- الأ يجيد التفصيل ؟

- أرأيت صورة الفتاتين اللتا خلفه.

- نعم .

- تلكما أختاه .. هن من يعملن في الواقع.

- ومن أين يشتري البائعات بضائعهن.

- بعضها مسروقة وأكثرها من مفقودات المنتجع.

- هل لك علاقات معهم ؟

- من .. البائعات ؟

- لا,المنتجع.

- كان هناك شخص يأتي لمتجرنا.

- أيمكن أن نذهب إليه غداً ؟

- يمكن .. لكن علي أن أحذرك.

- يحب الكلام كثيراً.

- لا .. عيناه سامتان.

في اليوم التالي ذهبنا باستخدام سيارة صغيرة إلى المنتجع , طلبنا من السائق أن ينتظرنا حتى نعود إليه , التقينا مع صاحب العيون المسمومة , كانت عيناه مزيجاً من اللؤم والخبث , حاولت طوال حديثنا أن أتجنب نظراته الحادة وافق على العرض الذي قدمته له (تالين) وقدمنا إلى موظفة المفقودات.

بعد لغة تهديد مغلفة بنبرة حنونة استطعنا أن نقنع الموظفة التي أحضرت لي ما تبقى من مقتنياتي الشخصية التي احتفظت بها , أغلبها أخذت بدائل عنها واستطاعت أن تحضر لي نسخة جوازي عن طريق صديقها الذي يعمل في الاستقبال , كانت فرحة (تالين) بحصولي على بعض مافقدته ونسخة الجواز ممزوجة بالأسى وإن كان في ظاهر كلماتها الفرح.

- ماذا نصنع إن طلب التخفيض ؟

- نعطيه التخفيض.

- لم يسبق أن قمنا بذلك .

- ألم تكن (تالين) تقدم حسم ؟

- أحياناً.

- تلك البداية.

شرحت لـ (تالين) الصغيرة طريقة التخفيض الأنسب للمتجر حسب إطلاعي السابق على المعروضات الموجودة به , كان الهدفين الأساسية من إجراء التخفيض هو التخلص والاستقطاب.

يقول (عيطموس) : جلست على المصطبة الحجرية أراقب حين بدأت (مهرة) و(تالين) مشروع تجديد منزل أسرة (تالين) , اتفقت كلتاهما أن تكون خطوات التجديد من الداخل وحتى الخارج , أكره الرسم والتصميم ولولا تلك الكراهية لنقلت رسمت المنزل من الداخل.

من العمق غرفتان متجاورتان إحداهما لها نافذة والأخرى بها شرفة ، أمامهما ممر صغير في إحدى جهاته دورة المياه وفي الجهة الأخرى باب المطبخ الذي يقابله صالة التلفاز وطاولة الطعام , على الجدار الممتد من باب المطبخ وحتى مدخل المنزل هناك آثار باب تم إغلاقه بالحجر وبقي منه الإطار الخشبي.

قالت (تالين) لـ (مهرة) تصف لها التغيرات التي طرأت على المنزل.

- الصالة كانت غرفة لأخوتي.

- لاحظت بقايا البناء على الجدار.

- كان هناك جدار طلبت جدتي من أبي هدمه بعد الشجار.

- والغرفة المسدودة بالحجر؟

- كانت غرفة جدتي , أغلقتها وفتحت لها باباً من الخارج.

- الباب البني ؟

- هو عينه .. أصبحت الغرفة مستودعاً للمتجر.

- أتعرفين السبب ؟

- سبب ماذا ؟

- السبب الذي دفع (تالين) لإجراء التغيرات.

- قد يكون نفس السبب الذي دفعني لإجراء التجديد.

بدأت (مهرة) و(تالين) في إفراغ الغرفة ذات الشرفة , قمن على نقل مافيها إلى الغرفة الأخرى , أو مايمكن للغرفة ذات النافذة من استيعابه , أحضر (إيفان) بعض مواد البناء التي طلبتها (مهرة) مع حضور عامل التمديدات لإكمال عمله في أول تجديد في المنزل دورة المياه ثم المطبخ , طُرق الباب عليهم

- أين صاحب المنزل ؟

- لحظة ...

نادى (إيفان) على (تالين) جاءت محملة بالغبار والعرق , أجابت الطارق الذي كان رجلاً في نهاية الأربعين وهي تمسح جبينها بظهر يدها

- نعم.

- أنت صاحبة المنزل ؟

- لا .. جدتي صاحبة المنزل.

- أيمكن استدعائها ؟

- لا .. عفواً , أقصد لا يمكن .. توفيت.

- أنتما أحفادها؟

- نعم ,نعم.

- هل يمكن التوقيع على استلام هذين الإنذارين؟

وقعت (تالين) وأخذت الورقتان من الرجل الذي مضى , مع خروج (مهرة) من الغرفة ذات النافذة إلى المطبخ رأت (إيفان) و(تالين) كل منهما يمسك بيده ورقة يقرأ فيها , سألتهما (مهرة)

- من الذي جاء؟

- مندوب المكتب الحضري.

علمت (مهرة) أن (تالين) حصلت على إنذارين من المكتب , الأول شكوى من إحدى الجيران والآخر من من إدارة المباني بالمكتب الحضري لعدم الحصول على إذن للقيام بأعمال الترميم , أتفق الثلاثة على استخراج (إيفان) للإذن.

تم تحديد يوم زيارة المهندس المعماري لفحص المنزل قبل إبداء الرأي الهندسي ومن ثم استكمال الحصول على إذن الترميم , أثناء تدوين المهندس للملاحظات دس (إيفان) في جيبه مبلغاً من المال , سألته (مهرة) بعد خروج المهندس , ترجمت (تالين) لها الإجابة التي كانت صادمة لها قالت " تنتهي الملاحظات بورقات نقدية " تعجبت (مهرة) كيف يستمرئ بعض البشر الرشوة وكأنما هي واجب أو حق بينما تراها عفن أخلاقي في صورة إكرامية .

كانت (مهرة) مترددة بين إبداء رأيها حيال ما حصل منذ زيارة مندوب المكتب الحضري وحتى زيارة المهندس , من جهة تود أن تخبرهما أن الإجراءات والتعامل معها في بلدها يختلف تماماً عما رأته في البلدة , ومن جهة أخرى ترى أن التدخل في شئون الآخرين يعطي الضوء لهم للتدخل في شئونها.

آثرت (مهرة) أن تحتفظ برأيها , ليست من سكان البلدة أو رعاياها ولا تفكر لحظة في الهجرة والعيش فيها كما اعتقدت والدتها حين تواصلت معها عبر الاتصال المرئي وكانت تظن أن (مهرة) سوف تكرر تجربة (ماهر) وهو مانفته لها (مهرة) مؤكدة رغبتها في العودة.

أثناء انتظار الثلاثة الحصول على إذن الترميم ومعالجة شكوى الجار الذي كان يرغب في شراء منزل (تالين) الكبيرة منذ فقدان زوجها في معركة حربية ورفضها لذلك ورفضها كذلك لفكرة الزواج التي قدمها لها , قام الثلاثة على نقل بعض المقتنيات والمنتجات والبضائع من المتجر إلى المستودع الذي كان سابقاً غرفة الجدة والعكس من ذلك , الهدف من عملية النقل بالنسبة إلى (تالين) و (مهرة) معروفة أما بالنسبة إلى (إيفان) لم تكن كذلك.

ذات مساء كانت (مهرة) تجلس في الغرفة ذات النافذة , من حولها الأثاث والتحف , بينما كانت تجلس (تالين) في الصالة , مع دخول موعد المسلسل الذي يتابعانه أخبرت (تالين) رفيقتها عن بدء المسلسل , اعتذرت لها (مهرة) عن المشاهدة , مع الإعلان الأول في المسلسل جاءتها لتسألها.

شاهدت (تالين) صديقتها (مهرة) في منظر لم يسبق لها أن رأتها فيها , حجم دهشتها كان أكبر من قدرتها على الحديث , تقدمت نحوها بخطوات حذرة صوت أطيط ألواح الخشب تحت قدميها أعلن لـ (مهرة) عن حضور (تالين) رفعت رأسها التي كانت تسندها على ركبتيها بينما كانت ذراعاها تحتبي بهما مسحت (مهرة) بكف يدها وجهها بسرعة قبل أن يعلو ثغرها ابتسامة هادئة.

حاولت (تالين) أن تعرف ما يحزن (مهرة) ولكن تحطم فضولها وإصرارها على حائط مشاعر (مهرة) الناضجة , قامت معها وتوجهت نحو الصالة لمتابعة المسلسل وكأنما لا تشعر بشيء سوى اللحظة التي هي بها.

في صباح اليوم التالي ارتدت (مهرة) الفستان الجديد وتزينت وفتحت هاتفها على البث المباشر لمتابعة نقل شعائر صلاة العيد , بعد انتهاء الخطبة تواصلت مع والديها وأخيها وبعض صديقاتها لتهنئهم بالعيد , دخلت للغرفة ذات النافذة حيث تنام (تالين) استيقظت لحركتها وسألتها :

- كم الساعة ؟

- الثامنة صباحاً.

- هل ستخرجين ؟

- لا.

- حسناً.

عادت (تالين للنوم بينما أردت (مهرة) العباءة التي فصلتها لدى الخياط مع شال ابتاعته من متجر مجاور له وخرجت.

توجهت إلى مقهى في الطرف الجنوبي من البلدة , جلست وطلبت الإفطار ثم شربت الحليب الساخن وضعت الحساب وعادت , في طريقها ترى الناس من حولها يمارسوا حياتهم اليومية المعتادة , عداها هي تشعر بتفرد ذلك اليوم.

- هل تواصلت مع (خلود) ؟

- نعم سوف تقوم باللازم.

- لا أعرف كيف أشكرك يا (شادن)

- لا تقولي شيئاً .. خطوة نبيلة منك.

- لا أعرف , أخاف ... (قاطعتها شادن)

- لا تخافي , أخبريني كيف هو شعورك اليوم ؟

- شعور غريب جداً .. ذهبت للإفطار في مقهى كما اقترحت علي.

- وماذا أحسست ؟

- حقاً شعور غريب.

- صفيه لي.

- كيف أصفه ؟ شعور الاختلاف صعب , تخيلي نفسك مكاني.

- ألم تلتقي بأي مسلم أو مسلمة ؟

- ولا حتى رائحة منها.

- إحساس مؤلم أن تكوني الوحيدة بينهم.

- كم أشتاق إلى الوطن !

- ألن تتركي مشروع منزلهم وتعودي؟

- قريباً سينتهي وأعود.

- إن شاء الله.

- بإذن الله.

أغلقت (مهرة) الاتصال المرئي الذي أجرته في الصالة ودخلت إلى الغرفة.

مع انتهاء الاثنتان من تصفية وإعادة ترتيب المستودع والمتجر , بدأت (تالين) بمساعدة (إيفان) و(مهرة) في وضع بطاقة الأسعار لكل قطعة في المتجر شملت البطاقة قيمة القطعة قبل وبعد التخفيض.

استخدمت (تالين) الحيلة التي علمتها إياها (مهرة) في كيفية وضع تخفيض لبعض المنتجات دون البعض الآخر وتقديم تخفيض حقيقي وليس وهمياً للبضائع التي تريد التخلص منها , جاءت خطوة التخفيضات تحت ذريعة موسم الربيع , وهو الموسم الأكثر كثافة سياحياً في رينا مارينا .

في هذا الموسم حسب ما أخبرت (تالين) صديقتها (مهرة) يكثر توافد السياح إلى البلدة من داخل وخارج الدولة , عدا أنها قلقة أن لا تكون حركة السياحة هذا العام مثل الأعوام السابقة في ظل وجود أزمة صحية تطوق العالم.

مع حصولهم على الإذن بالترميم تحول المنزل إلى سلة قماشية كبيرة , لم يعد أمام الجار المزعج صاحب الشكوى إلا أن يبدي استياءه وتذمره المستمر كلما رأى أحداً من الثلاثة , تضايقت (تالين) من ذلك التصرف السيئ المتكرر كاد (إيفان) أن يعتدي عليه بالضرب المبرح لولا شفقته عليه في اللحظة الأخيرة حين يرى بياض رأسه , ولم يكن من (مهرة) إلا أن صنعت كعكة وقدمتها له.

تعجب (إيفان) و (تالين) من تصرفها الودود مع الجار المزعج , استمرت (مهرة) في إهداءه الكعك والبسكويت طوال فترة أعمال الترميم , مع انتهائهم من تأسيسات المطبخ سكت الجار عن إزعاجهم ومع وصولهم للغرفة ذات النافذة أقترح عليهم تقديم المساعدة !

سألتها (تالين) وهما جالستان يعملان على ترميم إحدى قطع الأثاث

- ما الذي دفعك لصنع الكعك ؟!

- ماذا يحتاج الأطفال ؟

- لا أدري .. الرعاية , العطف ؟

جمعت (مهرة) شعرها في مؤخرة رأسها ووضعت ريشة الرسم بداخله لتثبيته ثم عدلت خصلتي غرتها وهي تقول لـ (تالين)

- الشعور بالاهتمام.

- وهل جارنا طفل ؟

- ربما .. طفل كبير.

- كان بإمكانك شراء كعك من مخبوزات السوق.

- ولكن لن استطيع أن أشتري تجربة جديدة.

- الكعك هو الكعك .

- بعد أن تذوقت منه , أيشبه مخبوزات السوق.

- لا .. له طعم مختلف.

- ذلك الطعم هي التجربة الجديدة له.

دخل عليهما (إيفان) بعد أن التقى مع مندوب التوصيل , أخبرتها (تالين) أن الإرسالية وصلت , تطلعت (مهرة) إلى ما يحمله (إيفان) متأملة أن ما طلبته من (شادن) قد وصل , قدمت لها (تالين) الكرتون المستطيل , فتحته ووجدت بداخله عصا الماكيلا والسكين , أخبرهما (إيفان) أن هذا ما أستطاع الوصول إليه من مقتنيات (مهرة) التي كانت في مستشفى سانت , أرسلتها (أرمولينا) بعد أن تواصل معها (إيفان) عبر هاتف المستشفى.

تترقب (مهرة) بين الحين والآخر وصول الشحنة التي كلفت (خلود) لإيصالها لها , تعمل (خلود) لدى شركة عائلة والدتها في النقل والخدمات اللوجستية علمت (مهرة) أن (شادن) سلمت (خلود) الشحنة وأخبرتها (خلود) أنها في طريقها إليها , مسألة وقت وستكون الشحنة لديها كما أبلغتها (شادن)

مضت الأشهر وهوية التصميم بدأت في الظهور بشكل واضح , تحول لون الجدران الشاحب إلى لون كريمي نقي يعكس الإشراق وألوان الأبواب الداخلية إلى مزيج من لوني "الأكوا و الأليس" يوحي بالهدوء والسكينة.

تغير موقع الأثاث وتمت معالجة البعض منها بطريقة الكولاج وإعادة توزيع الإضاءة ولونها ودرجتها وغيرها من اللمسات التي انعكست آثارها على ملامح (تالين) والتي أشرقت مثل إشراق صباح الربيع.

أثناء إعادة ترتيب الغرف أخرجت (تالين) حقيبة قماشية من دولاب الملابس ذات تطريز يدوي قالت لـ (مهرة)

- في هذه الحقيبة أحتفظ بالذكريات.

- جميل الاحتفاظ بالذكريات.

- أتودين أن أريك إياها ؟

- إن كنت لا تمانعي.

- أخرجت (تالين) المقتنيات من الحقيبة مما لفت انتباه (مهرة) دفتر رسم ودفتر يوميات , حين وصلت إليها (تالين) قالت لـ (مهرة)

- في هذا الدفتر رسمتك للمرة الأولى .

- عدا رسمت الكانفس التي أهديتني أياها ؟

- عداها .. وفي هذا الدفتر بعض الخربشات.

تصفحت (مهرة) دفتر اليوميات ثم قالت لـ (تالين)

- لو كُنت أجيد لغتك.

- أتودين أن أقرأ لك منه.

- نعم .. أود .

- لحظة .. (جعلت تقلب تالين بين الصفحات قبل أن تكمل)

- حسناً .. هنا كتبت عن زيارتك الأولى للمتجر.

- كتبت عني ؟!

- نعم .. حين أهدتك جدتي المنديل.

- أقراي لي

قرأت (تالين) :

دخت اليوم إلى المتجر فتاة في منتصف الثلاثينات ، لها هالة لطيفة تتوهج حولها وتضئ ملامحها الشرق أوسطية , أشترت بعض اللوازم المكتبة وأهدتها جدتي قبل خروجها إحدى المناديل الحريرية التي تشتريها من عمة (إيفان) بعد خروجها قالت لي جدتي أن روحها تشبه روح والدتي , تمنيت أن تعود تلك الفتاة لأنظر إلى روح والدتي مرة أخيرة.



وهما جالستان على الدرج الحجري المؤدي للمنزل قالت (مهرة) لها وبيدها كوب القهوة الوحيد الذي تشربه يومياً

- ألن تخبريني يا (تالين) ؟

- عن ؟

- عنك أنت و(إيفان) ؟

أحمرت وجنتي (تالين) وندى جبينها , جمعت الأحرف المبعثرة بفمها التي كانت مثل حال مشاعرها نطقت شفتاها :

- أممم .. لا أدري.

- لا تدرين ماذا ؟

- لا أدري ما هي مشاعري نحوه.

- هل صارحك بشيء.

- حسناً .. كما تعلمين أعرف (إيفان) منذ الطفولة.

- صحيح وأنه صديق أخيك.

- ليس هو فقط .. عائلته أيضاً تعرف عائلتي.

- كيف نشأت بينكما علاقة , أنتم في طرف وهم في طرف آخر.

-أترين ذلك المنزل (وأشارت لها على زاوية الممر)

- ذو الباب الأزرق.

- نعم .. ذلك منزل عمة (إيفان)

- لم أرى أحد فيه منذ جئت.

- أغلقته عمة (إيفان) من سنوات وأنتقلت منه.

- أهي ناسجة المناديل ؟

- هي ذاتها .. هيا بنا.

- إلى أين ؟

- سأخبرك في الطريق.

بعد أن وضعت (مهرة) كوب القهوة في المطبخ , خرجت لتغلق (تالين) خلفها باب المنزل بعد أن أخذت هاتفها المحمول والمفاتيح , تواجهت الاثنتان مع (إيفان) عند بداية الجسر الحجري الرابط بين طرفي البلدة , قال (إيفان) وبيده طرد متوسط الحجم

- لقد استلمته للتو من مندوب التوصيل.

وضعه (إيفان) بين يدي (مهرة) ليكمل :

- أخبرته أنني يمكنني إيصاله لكما

- شكراً (إيفان)

- إلى أين تتجه ؟

- كنت متوجهاً إلى صديقي وتوقف ليسألني مندوب التوصيل.

- نحن ذاهبتان لمنزل عمتك.

- وأنا ذاهب لمنزل صديقي .. إن احتجتما شيئاً راسلاني.

مضى (إيفان) في طريقه نحو الطرف الشمالي من البلدة.

طرقت (تالين) الباب باستخدام الحلقة المثبتة , فتحت الباب عجوز شارفت على الثمانين , حين رأت (تالين) ابتسمت ودعتها للدخول , دخلت الاثنتان خلف (فيفيان) في منزلها الصغير بالطرف الجنوبي من البلدة.

أثناء جلوسهما على الأريكة ذات النقوش الكلاسيكية , أوقدت (فيفيان) على إبريق ماء لتسخينه , أخرجت طقم الشاي من دولاب الأواني الزجاجية المقابل لمكتبة صغيرة في الصالون حيث تجلسان (مهرة) و(تالين) التي سألتها إن كان بالإمكان مساعدتها في شيء وأجابتها (فيفيان) أنها لاتزال شابة في الستين !

ابتسمت (تالين) و(مهرة) وهما تنظران إلى بعضهما البعض , حين عادت (فيفيان) حملت عنها (تالين) صينية الشاي لتضعها على الطاولة الذي فيه بقايا من آثار وفخامة .

استمرت (فيفيان) بالحديث مع الإثنتان باللاتينية قالت لـ (مهرة)

- لم أتعلمها من السياح والمسلسلات كما صنعت (تالين)

- كيف تعلمتها ؟

- كنت أدرس اللغات قبل أن أتزوج.

- جميل أنك احتفظت باللغة.

- لولا القراءة في هذه الكتب لنسيتها.

سألتها (تالين) : هل لديك مجموعة من المناديل ؟

سكبت (فيفيان) الشاي في الأكواب وهي تقول :

- لابد أن نترك روح الشاي تستريح في الماء جيداً.

قامت نحو دولاب متوسط الحجم وأخرجت من الدرج مجموعة المناديل

- هذه المجموعة حجزتها (تالين) قبل وفاتها.

لم تناقشها (تالين) في السعر , أخرجت مبلغاً من مبيعات المتجر ومدته لـ (فيفيان) أخذته العجوز ووضعته على أحد أرفف المكتبة ثم سألت (مهرة)

- كيف وجدت الحياة في رينا مارينا ؟

- بلدة وادعه هنا الناس لطفاء

علقت (تالين) : ليس على الدوام.

- كيف لو رأيتها قبل ستين سنة.

- أحكي لنا , متشوقة لسماع القصة منك.

- رينا مارينا .. أتعرفين لمَ سميت بذلك ؟

- نسبة للمرأة ذات شعلة الماء؟

- تلك نصف الحكاية .. بدأت الحكاية قبل مئات السنين .. بنى القدماء هذه البلدة قيل أنها كانت ثكنة عسكرية في بدايتها .. وقيل أنها بنيت لإسكان عائلات المقاتلين (قامت العجوز (فيفيان) وأحضرت من المطبخ صينية بها ثلاثة صحون صغيرة مملؤة بالفستق حين وضعتها قالت)

- الأيام تقتات من الذاكرة.

- لا ترهقي نفسك .

علقت (تالين) : يمكن أن نأتي في يوم أفضل لك .

أرتشفت العجوز من كوب الشاي رشفة صغيرة كأنما تريد التأكد من إمتزاج روح الشاي مع الماء لتقول

- هل ترغبان في الرحيل ؟

نظرت الاثنتان إلى بعضهما أجابت (تالين)

- لا نريد أن نضايقك.

- لا .. على الضد .. لولا أصدقائي على الرف لقتلني الثلاثة.

- من الثلاثة (هذا ما سألته مهرة)

- العمر والفراغ والوحدة.

استمر تجاذب الأحاديث بين الثلاثة حتى كاد حاجب الشمس أن يختفي , استأذنت الاثنتان منها ومضين نحو المنزل , في الطريق أشتروا مما تبقى في السوق من منتجات الحقول القريبة من البلدة وعادوا إلى المنزل الذي تفوح رائحته بمزيج من رائحة الخشب والأسمنت الرطب والأصباغ.

أعدت (مهرة) قائمة بالأعمال المتبقية من مشروع الترميم وعرضتها على (إيفان) و(تالين) التي لم تعلق

- يمكننا الانتهاء منها في أيام.

- قد تستغرق الأعمال من عشرين يوماً وحتى شهر.

- في أغسطس ؟

- أود لو تمكنا قبل ذلك.

(سألتها تالين التي كانت تترجم بين الإثنان)

- هل مللت من البلدة؟

- لا يا (تالين) ولكن نهاية يوليو يوافق يوم عيد

- حسناً فهمت.

قامت (تالين) نحو الغرفة ذات الشرفة وأغلقت الباب بغضب , أستأذن (إيفان) بالكلمات التي تعرفها (مهرة) من لغته , جلست بمفردها في الصالة متعجبة من غضب (تالين) الغير منطقي.

مع حلول موعد المسلسل طرقت الباب على (تالين) لإخبارها أجابتها (تالين) من خلف الباب بكلمات مثل اللكمات , لم تنم (مهرة) ليلتها تلك ، في الصباح الباكر من اليوم التالي الأحد حيث إجازة العاملين بالمنزل حزمت حقيبتها وخرجت طرق باب المنزل (إيفان) في فترة الظهيرة حيث يأتي لمنزل أسرة (تالين) لمساعدة الاثنتان , فتحت الباب (تالين) أخبرته أنها لا تدري أين ذهبت (مهرة) سألها ماذا حدث ، قالت له : بالأمس قلت لها .. أرحلي كما رحل البقية.

- فقط ؟

- فقط يا (إيفان) , خرجت اليوم من الغرفة لأعتذر منها فلم أجدها.

- أين يمكن أن تكون ؟

- لا أدري .. أفكاري أصداف على شاطئ هائج.

- أيمكن أن تكون قد رحلت من البلدة؟

- يمكن .. لا أدري ويمكن أن .. لحظة !

دخلت (تالين) مسرعة أخذت هاتفها المحمول والمفاتيح وهرولت نازلة

- أين تذهبين ؟!

- إليها

اختفت (تالين) عن أنظار (إيفان) وصلت إلى أحدى النزل الثلاثة الموجودة في البلدة , دخلت تخطف أنفاسها ,

- (يوب)

- (تالين)

- أين (لورين) ؟

- في السوق مع أخيها الفلا ... (قاطعته)

- هل جاءت (مهرة) ؟

- (مهرة) ؟ ليس غريب هذ ... (قاطعته مجدداً)

- الفتاة الشرق أوسطية.

- دعيـ ... (قاطعته مرة ثالثة)

- أسـ ... (أشاح عنها يوب ليخرج زجاجة ماء من ثلاجة عرض خلفه)

- أشربي بعض الماء حتى أبحث .

أثناء ارتشاف (تالين) من الماء

- ها .. وجدتها !

- غرفتها .. رقمها.

- للأسف !

- ماذا ؟!

- أنظري بنفسك.

قرأت (تالين) في خانة الملاحظات عبارة حطمت آمالها

- الأ يمكـ ... (قاطعها يوب)

- لو قدمت شكوى تعلمين.

- أعلم.

خرجت (تالين) من لدن(يوب) محملة بالذنب والخيبة , وصلت إلى منزلها دون أن تعي , قلبت في رسائل هاتفها بحثاً عن رسالة منها أو جواب على رسالتها , ألقت الهاتف والمفاتيح على الأريكة ودخلت للغرفة ذات الشرفة.

مساءً طُرق الباب طرقات خفيفة , تسارعت قوة الطرق حتى سمعتها (تالين) هرولت مسرعة , فتحت الباب متأملة أن تكون (مهرة)

- إيفان !

- تالين

- هل عادت ؟

- لا .. ولم أتمكن من رؤيتها.

- لماذا ؟

- أذهب وأسألها.

- هل قابلتها ؟

- إيفان ما بك ؟

- أردت الاطمئنان.

- هل اطمأننت الآن ؟

- نعم .. سأعود غداً لنكمل أعمال ... (قاطعته تالين)

- لا تعد .

- وماذا عن ... (قاطعته بحدة تالين)

- قلت لك لا تعد.

نزل (إيفان) درجات السلم دون أن يلتفت , أغلقت (تالين) الباب قبل أن يصل إلى الدرجة الأخيرة , في ظهيرة اليوم التالي , طرق الباب طرقات خفيفة خرجت (تالين) من المطبخ تحمل سكين الخبز الذي كانت تستخدمه , فتحت الباب وهي تقول :

- ألم أخبرك أن لا تعد.

- (تالين) !!

- أوه .. آسفة سيدة (فيفيان)

- من الذي لا تريدي عودته.

- لا أحد .. بائع .. الحليب.

- ظننته بائع الجادور.

نظرت (تالين) إلى السكين التي تحملها ثم قالت مستدركة.

- صحيح .. نسيت .. بائع الجادور.

- لا بأس , وجدت هذا الطرد في الصالون لدي.

أخذته من يدها (تالين) وهي تقول لها :

- تفضلي سيدة (فيفيان).

- قد لا يكون الوقت مناسباً.

وضعت (تالين) الطرد والسكين على طاولة صغيرة قريبة منها وهي تكرر دعوتها لـ (فيفيان) بالدخول , لفتت الترميمات الملحوظة انتباه (فيفيان) التي دخلت وجلست على الأريكة في الصالة , قالت لـ (تالين)

- من قام بهذه الأعمال ؟

- أنا و(إيفان) و(مهرة).

- هل عدتما لبعضكما ؟

- لم نبدأ حتى نعود سيدة (فيفيان)

نظرت إليها العجوز تعلو شفتاها ابتسامة بها سمة اللؤم.

- أتعلمين أنه يُحبك ؟

- ما رأيك أن أريك بقية المنزل ؟

قامت وتجولت السيدة (فيفيان) مع (تالين) في أرجاء المنزل توجهت (فيفيان) نحو الباب للخروج قالت لها (تالين)

- أجلسي حتى أعد كوب الشاي.

- لا .. الشاي يصنع بروية, ويأخذ أنفاسه بهدوء, ليشرب بُحب, وينتهي بلذة.

- سيدة (فيفيان)

- مسحت العجوز على زند (تالين) وهي تقول لها :

- لا بأس في المرة القادمة.

- سأسعد بحضورك.

قبل أن تخرج (فيفيان) من الباب ألتفتت نحو (تالين) قالت لها

- أيمكن ...

- أيمكن ماذا ؟

- لست أذكر ماذا أردت قوله

ابتسمت لها (تالين) وهي تودعها عبر درجات السلم , جلست على الأريكة , نظرت إلى جهز التحكم بالتلفاز بجواره ظرف لم تره بالأمس , فتحت الظرف وجدت مبلغاً من المال مع قائمة ببقية الأعمال وورقة صغيرة قرأت فيها :

تالين ,

شكراً لاستضافتك الأسابيع الماضية

أرجو أن تجدي في حياتك السلام

مهرة

وضعت (تالين) الظرف والملاحظة والنقود والقائمة على طاولة الطعام دخلت برهة للغرفة ذات الشرفة , عادت بيدها كراس رسم وقلم , فتحت الكراس وجلست على كرسي الطاولة لتكتب :

صديقتي : مهرة

أتذكرين ونحن كنا نعمل الكولاج للمزهرية الصفراء ماذا قلت لي , لقد قلت لي أننا نرسم حين لا يكون للكلمات مكان في أفواهنا يمكنها أن تعبر عما في قلوبنا ليست تلك العبارة الوحيدة التي سمعتها منك بوجداني قبل أذناي.

كثيرة هي الكلمات التي قلتها لي وكان وقع أثرها أكبر مما تتصورين , لقد كانت مثل قناديل مشعة أضأت عقلي وحفرت في صدري آثارها الناعمة التي غيرت أشياء ما كنت أظن أن تتغير أو يمكن تغيرها.

هل تعلمين كيف هو الشعور أن تكوني وحيدة وسط زحام البشر ؟ أن تشعري بالضياع في بلدة تعرفين طرقها جيداً , أن لا تجدي من يفهمك لأنك لا تفهمين نفسك , وحين تجدي ذلك الشخص الذي يمكنه فهمك يرحل !

لماذا قلت تلك الكلمات , سأخبرك بالحقيقة , الحقيقة التي أخفيها عن الجميع حتى عن نفسي , إن وصلت إليك هذه الرسالة أعلم عنك أنك صندوق ملئ بالأسرار لن يزاحم الصندوق سري الصغير , وإن ضاعت الرسالة ولم تصل إليك سيذهب السر إلى مكان لا معلوم ومن سيكترث لسر مجهول ؟

لم يسبق أن كان لي صديقة مقربة قط , كل أولئك الوجوه من حولي إنما هم امتداد صلات أخرى , صديقات المدرسة , صديقات الأسرة , صديقات الجيران , صديقات الحي , صديقات البلدة , كل الصداقات التي نشأت له صلة لم تكن من اختياري أو جاءت محض صدفة.

كنت الصديقة الوحيدة التي نشأت صداقتي معها خارج الصلات , ليس للمتجر صلة , الماورائيات التي أخبرتك أنني لا أصدقها كذبت لك فيها , صدقت بها منذ ذلك المساء الذي طرقت فيه باب المنزل , هل تعلمين ماذا حدث معي قبل تلك اللحظة ؟ لم أخبرك , انتظرت ستة أشهر حتى أرى علامة أو إشارة تعطيني الأمل بالحياة , قبل أن تطرقي الباب كُنت أفكر ما هي أسرع طريقة لأن أنهي حياتي دون وجع , فقد اكتفيت من أوجاع الحياة.

لماذا كُنت أفكر هكذا ؟ الأقرب من اليأس أنني كنت أريد أن ألحق بمن رحلوا من حياتي أخي ثيودور الذي كان يصطحبني من و إلى المدرسة يومياً حتى مات في ذلك الشجار , والدتي التي كانت أختاً وصديقة لي لإنها تعلم أن لاصديقات لدي ولم تهبني أختاً , جدتي التي كانت تغدق العطف في كل لحظة حتى وأنا نائمة , أبي الذي كان الأمان لي في هذه الحياة أخي ليو الذي تحمل العمل في معمل الفخار حتى لا أخرج من المدرسة , كل أولئك رحلوا فلماذا لا أرحل أيضاً أنا معهم ؟

حين أخبرتني جدتي أن فيك روحاً تشبه روح والدتي وجدت فيك الأمل حين طرقت الباب ذلك اليوم , رأيت روحها تمنعني من القيام بما كنت أفكر القيام به لقد صدقت حين قلت لي أن الإله يرسل لنا الأشخاص المناسبين في التوقيت المناسب حسب حكمته.

كنت أرى الشخص المناسب الذي صنع فارقاً في حياتي , أخبرتك أنني لا أصدق بالرموز والأسطير كذبت , أنت قدوة تمنيت أن يطول بقائي معك لأنني اتعلم كل يوم منك , كنت أختاً كبيرة في اهتمامك , صديقة مخلصة في تعاملك أماً حنونة في عطاءك , أستاذة في معارفك , لم أكن أصدق بالأساطير حتى عرفتك , وحين غرفتك رحلت , فهل حظي تعيس أم أن كل من يطأ البلدة هذه يصاب بلعنة الرحيل ؟!

سأتخطى وسأمضي في حياتي كما تعلمت منك فإن تصادفنا ذات يوم في إحدى طرق الحياة سأعلم أن رسالتي إليك وصلت وإن لم نلتقي أعلمي أنك تركت بصمة جميلة في رينا مارينا أسمها صديقتك : تالين



أثناء ترتيب احد الأدراج في مرسمي الخاص , وقعت عيناي على تذكرة وبطاقة صعود , مضى على التذكرة عدة أشهر أما بطاقة الصعود كانت هي الأغرب , خمس سنوات أنقضت كأنما هي خمس دقائق على تلك البطاقة التي بعد أن قطعتها وانتظرت في صالة المسافرين تم تغير صالة السفر إلى صالة أخرى دون إبلاغ المسافرين مما أدى إلى استياء كثيرون واضطررنا إلى إجراء حجز جديد لرحلة جديدة بعد يومين موعدها .

في لغة بطاقة الصعود بين ذهابي وعودتي ثلاثة أسابيع بالضبط , في لغة التاريخ كانت أثنين وخمسين أسبوعاً , سافرت في الحادي عشر من نوفمبر عام 2019م وعدت في الثلاثين من نفس الشهر ولكن عام 2020م , عام مضى من العمر كان مثل عمر في حساب الأعوام.

ذهبت برفقة أفكاري و(عيطموس) والفكرة الأهم للقرار , عدت برفقة أفكار جديدة وظروف غير مألوفة غيرت معادلة القرار الذي كنت أنوي اتخاذه استقبلتني في المطار ذلك العام (شادن) و(ليان) وطفليها (مراد) و(مرام)

- كيف حال خالتك الآن؟

- بخير.

- كيف أصبحت بعد الوباء؟

قفز الفضول لينطق بفم (مرام)

- ماتت !

شاركها (مراد) الفضول حين قال

- غرفتها كانت مليئة بالأسلاك !

أمسكت يد (ليان) وشددت عليها ونحن نمضي عبر بوابة الخروج في هدوء.

تمت دعوتي من قبل والدة (ليان) إلى ضيافة الصديقات بمناسبة خطوبة (ليندا) شقيقة (ليان) الصغرى , تعجبت كثير من الحاضرات من لبسي , كنت أرتدي فستان بلون كريمي نقي وحواف بلون الأكوا موشى بألوان الربيع , بعض الأشياء يمكن ن تتغير وبعضها الآخر قد لا يقبل التغير مثل العلاقات التي تساهم في تشكيلها الظروف.

محاولات التواصل ومد جسور العلاقة الأخوية من (باسل) و(جسار) و(مياسه) و(ريماس) كانت تبوء بالفشل , أخوتي يجمعني بهم والدي وأخواتي يجمعني بهم والدتي لكل منهم شقيق أو شقيقة , وأنا يكفيني شقيقي (ماهر) عن علاقة أخوية قائمة على النفاق الاجتماعي والظهور أمام الجميع بمشاعر ود عكس ما تضمره قلوبنا تجاه بعضنا , على الحد الأدنى بالنسبة لي تجاههم أليسوا سبباً في حرماني من والداي؟

الحلم بتغير العالم لم يتحقق لي منه شيء , ذلك الشعور الذي تضخم لدي بعد حصولي على الجائزة , ظننت أن أهميتي سوف تصنع فارقاً في حياة البشر فاز بعدي بالجائزة ستة أشخاص , في إحدى السنوات كانت بالمشاركة بين أثنين وننتظر مع بداية العام القادم 2026م إعلان الفائز القادم , أسم (مهرة سلطان) أصبح معروفاً فقط لدى المتخصصين لكن بالنسبة إلى العامة كان مجرد أسم فاز بجائزة دولية ونشر عنه الإعلام الأخبار والتقارير قبل أن يختفي في زحام أسماء وأحداث جديدة وكثيرة , من يظن أن وهج الإعلام سوف يضيء له الطريق للاستمرار في النجاح قد يكون واهماً بعض الشيء ، لن يضيء لك الطريق سوى انجازاتك التي وقودها العزيمة الصادقة , لذا لا أحلم يتغير العالم يكفي أن أساهم في تغير شخص واحد من هذا العالم.

كم عدد الأشخاص الذين ساهمت في تغيرهم , لا أعرف سوى بضعة منهم تعدادهم على أصابع اليدين , لكن من لا أعرف من ساهمت في تغيره قد يكون كثيرون وقد يكونوا قليلون , المهم أنني أعمل والنتائج تأتي لاحقاً.

أخبرني (ماهر) أن زواجه من إحدى مواطنات الدولة التي هاجر إليها للحصول على الجنسية و إنجابهما طفلين لم تكن حسب الخيال الذي حلم به والصورة التي رسمها عن تلك الدولة , لا يزال يعاني من التميز العنصري الذي يشبه الماء الراكد تحت طبقة الجليد ولا يزال يتلقى السهام الموجهة من بعض أطياف مجتمع تلك الدولة من قوس الإسلاموفوبيا التي يعانون منها.

كشف لي (ماهر) عن المتسبب في ضياع الكثير من مشاريع الشركة وذهابها إلى مؤسسات أخرى ناشئة , كانت معلومة صادمة بالنسبة لي أن تأتي الطعنات القاتلة من الداخل , تشاورت مع (شادن) ووضعنا مخرج لتلك المشكلة التي كانت مثل ورم لابد من إجراء جراحة إدارية لإستئصالة.

أكملت (شادن) تأليف مقطوعتها الموسيقية أثناء فترة الوباء الصحي وأطلقت عليها أسم " 39 ظلاً " حين سألتها عن سبب التسمية أخبرتني أن من الأمثال العامة أن لكل إنسان أربعين شبيهاً لكن في الواقع يستحيل أن يكونوا متطابقين معه في كل التفاصيل , لذا هم ليسوا إلا 39 ظلاً كما أنه هو إحدى ظلال الأربعين شخصاً , تماماً مثل مقطوعتها الموسيقية ماهي إلا ظلال جُمل موسيقية وفواصل لمقطوعات العازفين الآخرين وهي مقطوعة موسيقية قد يأتي لها 39 شبيهاً لها ذات يوم , استأذنت في استعارة أسم المقطوعة ووضعها عنوان لروايتي هذه , وافقت على شرط.

إلى جانب العزف الذي تقلص كثيراً بعد تأليفها للمقطوعة اتجهت (شادن) أكثر نحو التعليق الصوتي وكانت لها إنجازات مذهلة , قرابة خمسة عشر ألف ساعة صوتية سجلتها (شادن) خلال السنوات الماضية أعمالها الصوتية قبل الوباء كانت قليلة ومحدودة , لكن أثناء وبعد الوباء كانت الانطلاقة الصاروخية لها في ذلك المجال , تغلغلها في البدايات جعلها تكتسح في النهايات , رصيد ضخم من الساعات بدأ بثواني معدودة لمؤسسة خيرية.

انتقلت (ليان) إلى مرحلة أخرى في التسويق , يمكن القول أنها كانت نتيجة طبيعية لما بدأته أثناء الوباء , مع ذلك تلك النتيجة انعكست سلباً على علاقاتها مع الآخرين , كثيرات في المؤسسة قالوا بذلك وأنا منهم , لكن (ليان) لا تزال مصرة على أنها لم تتغير !

هل عدم ترشيحها لمنصب المدير التنفيذي جعلها تتغير ؟ ذلك المنصب الذي أصبح شاغراً بعد أن أستلم (فهد) منصب رئيس الشركة (زياد) لم يكن على قدر الأمانة التي كلف بها حين تم تعينه نائباً للمدير التنفيذي , الصدمات والتحديات في مجال العمل تجعل المرء مع مرور الأيام يتمتع بصلابة عالية.

لا يمكنني القول أن سبب تغير (ليان) إلا إصابتها بلعنة الثالوث الوردي , منذ أن باعت سيارتها القديمة التي أشترتها منها (شادن) بدأنا في الشركة ملاحظة تغيرها , تحول ذلك المحتوى التثقيفي والتعليمي في التسويق من الموضوعية إلى الذاتية وكلما أزداد عدد متابعيها أزادت (ليان) في صناعة محتوى عن ذاتها وحياتها , حب الشهرة ذلك مع عروض الإعلانات التي حققت لها وفرة في المال أضعاف ما تحققه في الشركة جعلها توكل مهام التسويق للشركة وأعمالها إلى الموظفين معها في القسم لتتفرغ جزئياً للانتشار أكثر والتسويق لنفسها والأفكار التي تؤمن بها وعزز لها ذلك الاتجاه تيار الفكر النسوي الذي تدافع عنه وتظن أنه يدافع عنها, ذلك التصور الذي أعتقد هو السبب في تغيرها وأرجو أن أكون مخطئة فيها وإن كانت كل المؤشرات تخبرني عكس ذلك.

أن تعود (ليان) صديقتي كما أعرفها ذلك أمر قد يكون من غير الممكن , على الأقل من ناحيتي , علاقة دخلت في قائمة المفقودات لا أعتقد أنه يمكن إيجادها بنفس قوتها مرة أخرى , هي الآن ترى نفسها أنها قدوة مؤثرة , ذلك شأنها لكن من نظرتي أرى أن ليس كل قدوة عَلم كما أن ليس كل عَلم قدوة , أحياناً يكون بعض البشر مثل مجسم غومبوش في مبادئهم إما أن يثبتوا عليها دون تغير أو يظلوا يتأرجحوا ويبدلوا بين المبادئ.

قد أكون مخطئة في جميع توقعاتي وقراءتي لحالة (ليان) قد يكون سبب تغيرها أو من أسبابه افتراق ثلاثتنا , لم يبقى مكان (شادن) شاغراً في الشركة فقط بل حتى في القلوب , الخميسية الثلوثية والأحدية التي كنا نقضيها سوياً بدأت بعد الوباء في الدخول لمرحلة الإنعاش الصناعي الإنعاش عبر المجاملة , انتهت أيام الثلاثاء مع ارتباطات (ليان) وانتهت أحدية (شادن) بعد سنة من عودتي,هل تحضيري للدكتوراه سلب مني حياتي الاجتماعية , على الأغلب الأمر كان كذلك خصوصاً أنني أضفت الخميس إلى الجمعة.

قبل أن أسافر إلى رينا مارينا كانت لديٍ عادة أسبوعية أقوم بها كل يوم جمعة في الواحدة ظهراً , بعد سورة الكهف والصلاة أحمل لوحة كانفس جديدة وأتجه إلى منزل صديقتي الغالية (أم ناهل) تلك الصداقة نشأت مصادفة أثناء دراستي الجامعية في مرحلة البكالوريوس , بسبب نادي العمارة في الجامعة تعرفت عليها لم تكن طالبة أو معيدة بالقسم أو عضوة بالأنشطة الطلابية.

تلك الأنشطة اللاأكاديمية و التي بقيت زمناً طويلاً ينظر لها على أنها مضيعة للوقت أو لتزجية الفراغ أو توظيف إمكانيات وقدرات الطالبات , دون النظر إلى مخرجاتها أو الإهتمام بها , كان لها دور كبير في حياتي الإجتماعية ومسيرتي الأكاديمية دون تخطيط مني.

على صعيد المسيرة الاكاديمية ساهمت تلك الأنشطة اللاصفية في تسهيل إجراءات القبول في مرحلة الدكتوراه , كانت من ضمن الإجراءات أن أقدم للقسم توصيات من أثنين يحملوا درجة أستاذ مشارك أو برفيسيور , كانت التوصية الأولى من الأستاذ المشارك الذي أشرف على رسالتي في الماجستير وكانت التوصية الثانية من برفيسيور درست لديه إحدى المقررات في مرحلة الماجستير وكان رئيس نادي فنون العمارة في الجامعة .

أثناء دراستي في مرحلة الدكتوراه كانت هناك صداقات جديدة تولد وهناك معارف تتوثق منها تلك الصداقة التي توثقت مع (ليلى) ذكرتني حالة (ليلى) كيف كنت أرى بعض الطالبات في مرحلة دراسة للبكالوريوس وهن يحملن مسئولية بيت بكامله من خلال إعالته من المكافأة وذلك الذي جعلني أتسائل حينها لو لم يكن هناك من أستطيع أن أستند إليه أكان بإمكاني أن أتحمل معركة الحياة بمفردي , وهذا مادفعني لأن أعرض على (ليلى) فكرة التدرب في الشركة مع مكافأة رمزية .

معرفتي بـ (ليلى) كانت من خلال طرف ثالث يربطنا به علاقة , تعرفت على (فوز الرضا) حين كنت في العشرين أو الواحد والعشرين ومنذ ذلك الحين لم يعلم احد عن صداقتي القوية معها إلا (شادن) أثناء رحلتي إلى رينا مارينا.

طالما أن الحديث قد جاء على (فوز الرضا) أو (أم ناهل) لعل الوقت مناسب لأحكي كيف نشأت العلاقة وأستمرت حتى اليوم , كان من ضمن أنشطة نادي العمارة الفصلية أن يتم اختيار ثلاث أو أربع بيوت , حسب عدد المنتسبات إلى النادي ويتم أجراء صيانة وترميم وإعادة تصميم داخلي لتلك البيوت يتم ترشيح المنازل أو الشقق تلك من قبل جهة رعوية بينها وبين النادي اتفاقية على الإستفادة من خدمات النادي.

كان منزل (أم ناهل) أحد البيوت المختارة , يقع المنزل في أحد الأحياء الشعبية , كلف رئيس النادي أربع طالبات أنا أحداهن للتواصل مع صاحبة المنزل والبدء في ترميمه خلال الفصل , اعتذرت طالبة عن المشاركة وبدأت خطوات الترميم البسيطة مع الأثنتان الباقية , في منتصف الفصل تقريباً أعتذرت طالبة أخرى عن الأكمال وقمت مع زميلتي على الإنتهاء من المهمة مع نهاية الفصل , قبل خروجي من منزل (أم ناهل) التي توطدت علاقتي معها مع الزيارات الأسبوعية أثناء إجراء الترميم سألتني هل سوف يستمر النادي في إجراء الصيانة للمنزل , لم أكن ساعتئذ قد أعددت جواباً لهذا السؤال , قلت من باب الثقة في مشرفي النادي ورئيسه : نعم .

حين أخبرت رئيس النادي قال لي " تنتهي علاقتنا مع صاحب المنزل بإنتهاء العمل " كنت في وضع لا أحسد عليه إما أن أتقبل ما أخبرني به وأكون كاذبة أمام (أم ناهل) وإما أن أكون صادقة أمامها ولا أقبل بما أخبرني به رئيس النادي.

أخترت الطريق الذي أكملت فيه قرابة ثمانية عشرة عاماً , في الزيارة الأولى لها كانت تحمل عبء ثلاث بنات وولدين , أكبر بناتها في الثامنة من عمرها ثم السادسة والخامسة والولدين أحدهما في الثالثة والآخر والأخير في سنته الأولى , توفي زوجها في حادث سير أثناء سفره ولم يترك لهم سوى ذلك المنزل المتهالك سابقاً والذي بقيت (أم ناهل) به حتى عام 2020م.

حتى يبقى العطاء جميلاً وبمقدار حاجة الشخص ودون إشعاره بالحياء , قمت على تخصيص مبلغ مالي شهري من دخلي الخاص , ثم بعد استلامي المؤسسة قبل تحويلها إلى شركة إزداد ذلك المبلغ للقيام بما يعرف بالخدمة المجتمعية , جزء من المبلغ كانت ترسله (سلمى) إلى جمعية خيرية فيما كنت أضع الجزء الآخر من المبلغ في حساب (أم ناهل) والتي أخبرتها أنها أمانة حملني أياها فاعل خير مجهول , وطلبت منها أن تتصرف بالمبلغ كيفما تشاء وتعطي لمن تشاء ممن ترى أنهم في حاجة للمساعدة.

استمر الأمر كما بدأ حتى سنتي الوباء , في تلك السنتان إنخفض تدفق السيولة مع الإغلاق وتوقف المشاريع بالمؤسسة , استعنت بـ (شادن) وطلبت منها تحويل مبلغ معين إلى حساب (أم ناهل) وطلبت منها أن تطمئن عليها , لم يكن قلق (أم ناهل) حسب ماعملت منها لاحقاً على ذلك المبلغ الذي يأتي من فاعل الخير المجهول بل كان قلقها علي لأني بالنسبة لها أختها الصغرى , مع تحول المؤسسة إلى شركة حدث تحول كذلك في حياة (أم ناهل).

أما وقد تطرقت إلى التحول في المؤسسة لعلي أكتب عن بعض التحولات التي حدثت بها منذ عودتي , حين خرجت منها كانت مؤسسة وحين عدت إليها وقد أصبحت شركة , الجميع بإستثناء القليل رأوا أن ذلك التحول مجازفة كبيرة وخطرة وفي توقيت غير مناسب إلا (أحمد) و (شادن) و(ليان) و(فهد) نرى أنها فرصة مناسبة ومناسبة جداً , الوباء كان مثل مسرعة أعمال وكانت الأزمة حبلى بالنعم وفرصاً لا تحصى , بقاء الناس في منازلهم أحدث موجه في سوق التصميم الداخلي , وكان لابد من تلبية الطلب.

الفارق في المنافسة كانت الخبرة والتسويق , استطعنا أن ننشئ مساحة في أعمال الشركة لتغطية ذلك السوق , أولى الخطوات أن قمنا على توزيع أعمال الشركة إلى أربعة أصناف أو أحجام ، مشاريع كبرى واحد أو أثنين سنوياً ومشاريع متوسطة والتي يستغرق تنفيذها أقل من ستة أشهر ومشاريع صغرى والتي يستغرق تنفيذها ثلاثة أشهر وأقل ومشاريع صغيرة جداً والتي تستغرق شهر أو أقل في تنفيذها , وفي كل نوع مشاريع وجدنا منافسين لنا.

برغم كثرة المنافسين في المشاريع المتوسطة إلا أن مؤسسة واحدة منافسة لنا كانت الأكثر خطراً على أعمال الشركة , ليس لأنها منافسة شرسة غير شريفة ولكن لأن تلك المؤسسة كان يقف خلفها في الظل (ميشيل) وزوجته (رويدا) ومن خلفهم كان يزودهم بالبيانات والمشاريع (ساندي) و(زياد) كانت الصدمة في أول معرفتنا بالأمر مؤلمة جداً , أن تأتي الطعنة من الخارج ذلك أمر متوقع أما أن تأتي الطعنة من الداخل فذلك الوجع القاتل.

حين علمت (شادن) عن مسألة تسريب البيانات قبل سفري إلى رينا مارينا وأخبرتني بذلك وضعت وإياها خطة لإغلاق تلك الفجوة أولاً ومحاولة معالجة الأضرار ثانياً , تواصلت مع أخي (ماهر) وأخبرته عن المشكلة التي وقعت في المؤسسة آنذاك الشركة حالياً , أبتكر (ماهر) برمجة لتتبع نشاط (ميشيل) و(ساندي) على الشبكة العنكبوتية , بعد مراقبة أستمرت حتى بعد إنتهاء الجائحة أحضر لي (ماهر) أثناء زيارته للوطن بعد الوباء كمية المعلومات التي كشفت لي ماقامت به (ساندي) ودورها في تسريب بيانات المشاريع إلى (ميشيل) ودور (رويدا) في التواصل مع العملاء ووضع (زياد) واجهة وهمية لتنفيذ الأعمال.

في مكتب (شادن) بحضور (لافي) و (ساندي) و(زياد) وقع الإثنان على تنازل عن حصصهم في الشركة وكافة حقوقهم فيها وذلك مقابل إتفاق شفهي مع (لافي) و(شادن) أن لايتم ملاحقتهم قضائياً , وافق الإثنان على ذلك الإتفاق وتم إغلاق تلك الفجوة ليأتي دور (ليان) و (ميعاد) و(عمار) في إعادة قاعدة العملاء المسربة وتعزيز الثقة والولاء معهم .

حين تطرقت للحديث عن مكتب (شادن) تذكرت الإطار الخشبي الذي وجدته على مكتبها وفيه أبيات شعرية مطلعها أحبتنا أن حفظ الود دين , حضر لذهني أنني أحتفظ بتصميم المكتب في مرسمي الخاص , هنا في التاون هاوس الذي سجله زوجي بإسم طفلتنا بحثت في المرسم في صندوق التصاميم وهذا هو تصميم مكتبي السابق في المؤسسة مكتب (شادن) في الشركة الذي لا يزال شاغراً حتى اليوم , وأنا أنظر لرسمة المكتب لم يكن في عقلي سوى تساؤل واحد : كيف أخبرها أنني لا أزال على عهد الصداقة؟



كنت أظن على مدى ستة عشرة سنة أو تحديداً خمسة عشرة سنة وسبعة أشهر وتسعة أيام أن (شادن) لاتقوم إلا على الأعمال الموكلة بها , كشفت لي الأزمة أنها كانت تقوم بالمساعدة في أعمال إضافية في كثير من الأقسام دون إخبار أحد , دافعها الخبرات التي لديها وحب المساعدة دون أن تؤثر تلك الأعمال على مهامها الأساسية التي كانت تنفذها بدقة الساعة.

تغيرات كثيرة أحدثتها (شادن) في الشركة , من ضمن التغيرات آلية العمل بين التسويق والتطوير والدعم الهندسي والمشاريع , ألزمت (شادن) موظفي تلك الأقسام عبر مدرائهم أن ينتقل كل موظف فترة ثلاثة أشهر إلى الثلاثة الأقسام الأخرى موظفي التطوير في الدعم وموظفي الدعم في التسويق وموظفي التسويق في المشاريع , واجهت (شادن) مقاومة في البداية تحولت مع التجربة إلى منافسة بين موظفي القسم للترشح للإعارة.

على العكس من مراتب الإدارة الإدارة الضاغطة , النزول في المراتب الوظيفية مثل طبقات الأرض كلما إزداد النزول إزداد أيضاً الضغط , لم ألحظ ذلك في الفترة الأولى مرحلة فرع المؤسسة لكن وجدت آثارها مع عملي تحت إدارة (الجازي) في الدعم الهندسي , وجهة نظر (ليان) الميزة التي كنت أعيبها عليها في إنجاز التفاصيل الصغيرة هي صحيحة , الخبرة لها الدور الأقوى في إنجاز تفصيل صغير أسرع وأدق من خبرات المبتدئين , عرفت ذلك حين أشرفت على تدريب (ليلى).

الإشراف على (ليلى) والعمل في القسم والتحضير لدراسة الدكتوراه إلى جانب الاستمرار في النشاط الإجتماعي النادي ولقاء (شادن) و(ليان) و(أم ناهل) وحضور المناسبات الإجتماعية كانت ضغوط لابد أن أتعامل معها بشيء من المرونة , لم تعد لقاءات الأحدية والثلوثية والخميس ذات طابع عفوي تحولت بعد الوباء إلى أحاديث نميمة وأحاديث عن أحداث المجتمع وعن الأعمال في الشركة , المساحة من العزلة التي كنت أحظى بها هي عند زيارة الصالون.

التوصيات كانت كثيرة من المعارف والصديقات إلا أنني بقيت على ولائي للمكيب أرتست و خبيرة التجميل اللائي أتردد عليهن منذ سنوات طويلة , حتى أنني أحضرتهن في ليلة زفافي من زوجي (فهد) الذي لم أكن أتصور أن يكون زوج لي ذات يوم ولم أتوقع حدوث ذلك ، لا يزال حتى الأمس يحاول أقناعي بالعودة إلى رئاسة الشركة لكنني أرفض ذلك لسبب.

حين أصبح المقعد شاغراً برحيل (شادن) حاول الجميع إقناعي لإعادة استلام المنصب , الإنشغال برسالة الدكتوراه كان سبباً وجيهاً لعدم قبول ذلك وقبول الجميع لتلك الحجة خصوصاً مع تكليف (فهد) بمهام أعمال رئيس الشركة وترشيح (سعود) نائباً تنفيذيا , رحلة الدكتوراه بدأت عندما طرأ إلى ذهني أن أحضر الدكتوراه على المباني القديمة رفض القسم بالجامعة رسالة الدكتوراه على مبنى (عدي) والآن أحمد له ذلك الرفض.

لم يكن مشروع مبنى(عدي) سوى فخ من (ميشيل) كشفه لي (ماهر) حيث كان ينوي الإثنان إسقاط المبنى بالكامل أثناء عملية الترميم وإدخال المؤسسة في ملاحقة قانونية ولكن حين أكتشفت ذلك مع مراسلات (ساندي) و (زياد) رفضت (شادن) مشروع (عدي) قبل أن تخبر الإثنان عن علمها بما يخطط له (ميشيل) الذي حاول تهديد (شادن) بدعوى قضائية لكنها كانت أشد شراسة منه حين أبلغته أنها هي من ستلاحقه قضائياً إذا لم يتنازل للشركة عن المشاريع التي أخذ عملائها وأنتهى الأمر على عودة بعض المشاريع دون أخرى.

لم تكن الإشكالية في مشروع (عدي) وأن له أسباب عدائية هناك إشكالية أساسية كما شرحها لي البرفسيور المشرف على رسالتي وهو الفرق بين التنظير والواقع , علمياً توجد المراجع في الكتب وفي تجارب المتخصصين ولدى الأكاديميين , في الواقع هناك شح أو ندرة في المتخصصين بتلك الأعمال في سوق العمل , أتفقت مع مشرف الرسالة على تغيرها لتكون في دمج التقنيات الذكية مع الأساليب المعمارية في المباني التاريخية مع الحفاظ على الهوية التراثية والعمرانية للمبنى.

فهمت (عدي) الذي لم تكشف لي تجربة التعامل معه فقط الأقنعة السوداء بل من تجربة العيش في رينا مارينا عرفت (عدي) لأي طبقة ينتمي , هو من طبقة مخيفة بين طبقات المجتمع , فاحش الثراء يعيش حياة البسطاء أولئك طبقة لايمكن إكتشافها بسهولة على العكس منهم أولئك البسطاء الذين يحاولون الظهور بمظهر الثراء.

لم يكن ذلك الشيء الوحيد الذي عرفته من رينا مارينا , تعلمت هناك درساً مهماً وهو القدرة على التخلي مهما كان الطرف الآخر , حين كنت هناك كنت أهدف أول الأمر إلى أن أفهم (ليلى) من خلال فهم (تالين) كلتاهما بنفس العمر واجهت من (ليلى) ممانعة التعامل حتى كسبتها إلى صفي من خلال جلسات رسم كل جمعة حين أزور والدتها (أم ناهل) وأختيها (لبنى) و(لمى) وأخويها (ناهل) و(نهار) لكل فرد في عائلة (أم ناهل) هواية أو إهتمام كنت أحرص دوماً أن أشاركه فيه , لكن الهدف في رينا مارينا تغير إلى فكرة أخرى وهو توسيع نشاط الشركة وهذا بالفعل ماحصل امتدت مساحة الأعمال للشركة عبر وكلائها إلى شرق وشمال أوروبا إضافة إلى الشراكة مع شركات نقل بري وبحري وشركات خدمات لوجستية , النقل والخدمات جاءت من خلال فرص عرضتها (خلود) على (شادن) والوكلاء بدأت من ثاني المشاريع في رينا مارينا منزل السيدة (فيفيان) كانت بداية صغيرة تعاظمت بسرعة كبيرة.

كانت تجربة العيش في رينا مارينا كافية لن أتعلم منها كيفية التخلص من العلاقات المؤذية كما حصل مع (ليان) التخلي عن علاقة صداقة سطحية ليس بالأمر الصعب لن أضع نفسي بعد ذلك اليوم الذي تخاصمت فيه مع (تالين) في موقف يجعلني في مكانة يمكن الاستغناء عنها في أي لحظة , بعد أن تركت منزل (تالين) وتوجهت إلى الفندق الذي يديره (يوب) زوج (لورين) نبهت لهما أن يضعا في الملاحظات عدم رغبتي بإستقبال أحد.

استمرت محاولات (تالين) حتى بعثت لي مع (إيفان) الطرد الذي نسيته لدى (فيفيان) حين أستلمته ضحكت من بلاهتي حين ظننت أنني سوف أغير العالم وأستطيع ذلك من خلال علاقات سطحية , وكان درساً موجعاً لي حين وقفت بين رغبتي في تغير فكرها وبين الموقف منها ورغبتها في رحيلي من منزلها.

حاولت تجاوز ذلك الخطأ منها , أتفقت معها أن نكمل أعمال المنزل وأنا بالفندق , حاولت (تالين) أن تعيد العلاقة إلى طبيعتها , ذلك شيء يصعب حصوله أيمكن إرجاع تيار الماء إلى المصب ؟ علاقتها مع (إيفان) بقيت كما هي بسبب النصف سبب الآخر الذي لم يجعلها تذهب مع (تالين) ووالدها وأخيها , لم تكن (تالين) تؤمن بأي ديانة سماوية وهذا مادفعني لأن أطلب من (شادن) أن ترسل لي عبر تكليف (خلود) نسخة مترجمة بلغة (تالين).

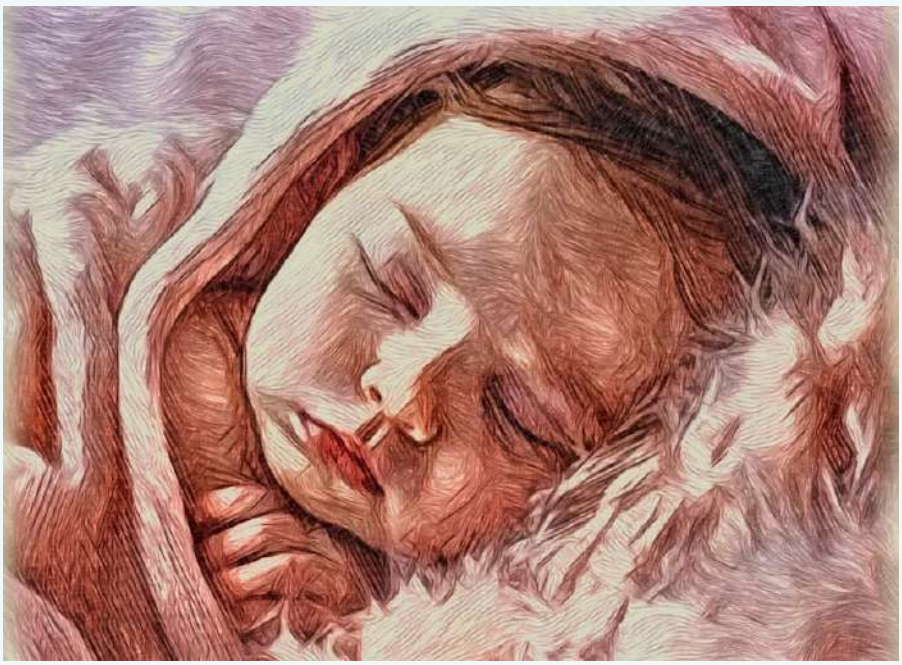
حين قدمت لها المصحف مغلفاً إشترطت عليها وهي تودعني في المطار أن تعدني أن لاتفتح التغليف إلا حين تكون مستعدة للتغير الإيجابي نحو الأفضل كان سؤال (تالين) المتكرر أنها تبحث عن إجابات لأسئلتها وتنتظر اللحظة التي تجدد بها حياتها مثل تجديدها للمنزل الذي تشاركنا فيه.

وجدت أن تدخلي بين (إيفان) و (تالين) لاجدوى منه , بعض العلاقات لايمكن إصلاحها إذا تمسك كل طرف بموقفه , لا (إيفان) يقبل بالزواج المدني الذي أشارت له به ولا (تالين) تقبل بالزواج الكنسي الذي كان يريده لهما وذلك ماسبب بينهما فراغاً في العلاقة وصراعاً في داخلهما بين رغبة النفس ودافع الوجدان , لم ينتصر أي منهما في تلك المعركة وخسر الإثنان من أجل أن يفوز كلاهما بموقفه الذي يصر عليه.

حين يفقد الإثنان بعضهما وتنتهي علاقتهما وتنقطع تماماً سيكون الزمن كفيلاً لأن يداوي جروحهما وليس لي دور أن أتدخل في ذلك , كثيرة هي العلاقات التي نفقدها مع الأيام لسبب أو لآخر مثل علاقتي مع (عيطموس) لا أعرف أين أختفى (عيطموس) هل كان ضحية الوباء , تلاشى بين أصابع (شادن) حبسته (ليان) في أخدود مائي , تزوج من رينا , وجد مساراً في عقل (تالين) أو عُجن في إناء بإيدي (إيفان) هاجر مثل (ماهر) تحول إلى مرسام في يد (ليلى) , لا أعرف أين أختفى , ولم أعد أسأل عنه بعد إختفاءه , كل ما أعرفه أنني لم أعد أرى خياله أو أسمع صوته !

آخر عهدي بـ (عيطموس) قبل رحلتي إلى دوفر بعدة أشهر والتي كانت مع زوجي (فهد) وطفلتنا (تالين) , في أثناء تلك الرحلة لمحت خيالاً جواري ظننته باديء الأمر (عيطموس) سألته متى عاد لكنه لم يجبني , حين كررت عليه السؤال أجابني صوت أنثوي بلغة أعرفها سألتها من تكونين وأين (عيطموس) قالت : تسعـ ... , قبل أن يخفو صوتها ويتلاشى , لا أعرف أقالت تسعون أم تسعة وثلاثون , كان زوجي آنذاك قد

ذهب ليلعب البالوت مع أشخاص تعرف عليهم أثناء الرحلة بينما بقيت في الكابينة رقم B15 برفقة طفلتنا (تالين) التي بدأت في رسمها في تلك الرحلة والتي حسب التذكرة أبلغنا الكابتن عن مرورنا من جوار بعض الدول , في إحدى تلك الدول تقع بلدة رينا مارينا , لا أزال أحتفظ بتذكرة تلك الرحلة وهذه هي رسمة طفلتنا (تالين) في عامها الأول.



(شادن) التي أحتفلت معها قبل بضع سنوات على مضي خمسة عشر عاماً من الصداقة والتي أستمرت بعد ذلك الأحتفال سبعة أشهر وتسعة أيام كان شرطها أن لا أضع أسمها الحقيقي في الرواية , ألتزمت معها على هذا الشرط حتى لو غابت هي عن دنيانا , لايوجد في الرواية أسم حقيقي واحد ليس الأسماء فحسب بل حتى الشخوص ليسوا سوى 39 ظلاً لعيطموس أو أحد أصدقاءه الذين ألتقيت بهم على باخرة ثيسوس والتي تعود لها التذكرة التي وجدتها في درج المرسم مع بطاقة الصعود.



...., تكون تلك اللحظة مثل عمر بأكمله في تفاصيلها.

رقم التسجيل : 202601046482632